مجلد ١ — عدد ١ اكتوبر ١٩٤٥

الكاتب المصرى

مجلة ادبية شهرية

رئيس التحرير : دكتور طه حسين بك

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى
شركة مساهمة مصرية
القاهرة

اتفقت مجلة الكاتب المصرى مع طائفة من كبار
الأدباء الأوربيين والأمريكيين على ان يوافوها
بمقالات وقصص تكتب لها خاصة بحيث تنشر
لأول مرة باللغة العربية قبل نشرها بأَية لغة اخرى
فيكون قراء هذه المجلة أسبق الناس الى الوقوف
على ثمرات عقول هؤلاء الكتاب.

جائزة الكاتب المصرى للقصة

قررت دار الكاتب المصرى التى يشرف عليها الدكتور طه حسين بك من الناحية الثقافية إنشاء جائزة سنوية للقصة قدرها مائة جنيه .

وهى تدعو الكتاب والمؤلفين إلى الاستباق لنيل هذه الجائزة .

وستحكم بين المستبقين لجنة مكونة قوامها خمسة من كبار الأدباء الممتازين فى مصر — وقد حددت آخر موعد لتقديم القصة يوم ٣١ يناير سنة ١٩٤٦ .

١ — المسابقة مفتوحة للكتاب العرب جميعاً على اختلاف الأقطار العربية فى الشرق والغرب .

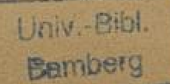
٢ — الكاتب حر فى اختيار الموضوع الذى يكتب فيه لايتقيد بزمان ولا مكان ولا بيئة ولا اتجاه .

٣ — يجب أن تمتاز القصة بالابتكار وقوة الخيال وجمال اللغة العربية فى الشرق والغرب .

٤ — القصة التى تظفر بالجائزة ملك لدار الكاتب المصرى تطبعها وتذيعها على أن تحتفظ لصاحبها بحق المؤلف وقدره عشرون فى المائة من ثمن البيع الفعلى بعد الخصم — وهذا الحق مستمر مهما تتعدد الطبعات . وكل ذلك يجرى طبقاً للنظام المعمول به فى دار الكاتب المصرى والذى يستطيع كل كاتب أن يطلع عليه .

٥ — يجوز لدار الكاتب المصرى أن تطبع القصة الثانية إذا أوصت بذلك لجنة التحكيم وقبله صاحب القصة فى حدود النظام الذى أشير إليه فى البند السابق .

٦ — يرسل الكاتب نسختين من قصته مكتوبة على الآلة الكاتبة أو بخط واضح بعنوان دار الكاتب المصرى شارع قنطرة الدكة رقم ٥ — القاهرة — ولا تقبل أى قصة تصل بعد تاريخ ٣١ يناير سنة ١٩٤٦ .





الكاتب المصرى

رئيس التحرير

دكتور طه حسين بك

مجلد ١



القاهرة ١٩٤٥

الكاتب المصرى



شوال ١٣٦٤ | اكتوبر ١٩٤٥

مجلد ١ — عدد ١

برنامج

يقال إن الشعب المصرى أول من كتب بالقلم ، واتخذ الحروف رمزاً للكلام الذى يؤدى عن القلوب والنفوس والعقول ما يثور فيها من العواطف ، وما يضطرب فيها من الاهواء ، وما يخطر لها من الآراء .

وقد اتخذت هذه الدار من الكاتب المصرى القديم اسما لها وشعاراً ، واتخذت هذه المجلة التى تصدرها هذه الدار من الكاتب المصرى القديم اسما لها وشعاراً أيضاً . وهذه المجلة تستمد برنامجها وخطتها وسيرتها من تاريخ مصر القديم والحديث ، ومن المهمة التى نهضت بها مصر منذ شاركت فى الحضارة الانسانية العامة .

فمصر بلد من بلاد البحر الأبيض المتوسط، أتاح لها مركزها الجغرافى أن تمتاز بين بلاد الشرق الأدنى بثروتها وقوتها وثقافتها ، وأتاح لها هذا المركز الجغرافى وما قدر لها من اعتدال الاقليم ألا تكون أثرة ولا منحازة إلى نفسها ولا منقطعة الصلة بغيرها من أقطار الأرض قريبها وبعيدها ؛ فهى تعطى مما عندها وتأخذ مما عند غيرها ، وتقيم حياتها كلها على هذا الأخذ والعطاء . وهى من أجل ذلك نهضت بمهمة التوسط بين الشرق والغرب فى شؤون الثقافة والسياسة والاقتصاد .

سبقت إلى التعاون الثقافى مع الأمم المتحضرة القديمة ومع الأمة اليونانية خاصة ، ثم مضت فى هذا التعاون مع روما كما مضت فيه مع أثينا من قبل . ثم استأنفته مع دمشق وبغداد وقرطبة ، وهى الآن تمضى فيه مع بلاد الشرق كله ومع بلاد الغرب كله . تنقل إلى الشرق خير ما عند الغرب من المعرفة ، وتؤدى إلى الغرب خير ما عند الشرق من تراثه الثقافى الخالد العظيم .

ولن تستطيع مصر أن تتحول عن هذه الطريق التي رسمها لها التاريخ ، ولا أن تستعفى من هذه المهمة التي فرضتها عليها القرون . وهذه المجلة لا تريد إلا أن تكون أداة من أدوات مصر لتحقيق هذه المهمة ، ووسيلة من وسائلها للنهوض بهذا الواجب الخطير .

فهي ستكون صلة ثقافية بأدق معاني هذه الكلمة وأرفعها بين الشعوب العربية أولاً وبين هذه الشعوب وأمم الغرب ثانياً .

ولكل أدب حي مقومان أساسيان ، يكفل أحدهما له الثبات والاستقرار ، ويكفل ثانيهما له النمو والتطور والارتقاء .

فهذه المجلة ستحرص أشد الحرص على العناية بهذين المقومين للأدب العربي ، فتعنى بتقديم هذا الأدب تدرس تاريخه وتكشف أسراره وتحيي آثاره . وتعنى بالأدب الحديث الذي ينتجه الممتازون من كتّاب الشرق العربي تذيعه وتدرسه وتنقده وتشجعه وتجعله غذاء لعقول العرب وقلوبهم وأذواقهم ، وتهيئه لعقول غير العرب من أبناء الأمم الأخرى المتحضرة بحيث يمكن أن ينتقل إلى اللغات الأوربية المختلفة .

ولعل هذه المجلة نفسها أن تنقل مختارات منه إلى هذه اللغات وتذيعها في الشرق والغرب بين حين وحين . وتعنى مع هذا كله بالآداب الأجنبية ، تعرفها إلى القراء العرب بالدرس والنقد أو التحليل ، وتنقل اليهم منها أطرافا صالحة ترجو ان يجدوا فيها النفع والمتاع .

وستأخذ هذه المجلة نفسها بقانونين لن تحيد عنهما مهما تكن الظروف . أحدهما الشدة على نفسها وعلى كتابها وقرائها فيما تنشر وماتنقل من الفصول ، فلن تقدم إلى قرائها إلا هذا الأدب الذي ينفق صاحبه في إنتاجه الجهد العنيف والوقت الطويل ، وينفق قارئه في إساغته من الوقت والجهد مثل ما ينفق منتجه . فلن يعرّض الأدب العربي لخطر التفاهة والابتذال شيء كهذا الانتاج السريع ، وهذا الاستهلاك السريع . فالأدب فن يحتاج كغيره من الفنون الرفيعة إلى أناة الكاتب وتأنقه واحتفاله ، وإلى تمهل القارئ وتأمله وتدبره . ولابد من أن تأخذ الأجيال العربية المعاصرة نفسها بالأناة في الانتاج الفني وفي الاستهلاك الفني أيضاً .

القانون الثاني هو الحرية الواسعة الكاملة السمحة فيما تنشر وفيما تختار من آثار القدماء والمحدثين ، ومن آثار الشرقيين والغربيين ، لا تنظر في ذلك إلا إلى

الفن الخالص وإلى قيم الثقافة العليا وما يحقق التعارف والتواصل بين الذين يمثلون هذه الثقافة من رجال الأدب والعلم والفن .

وهى تنظر إلى أمس، وتنظر إلى اليوم، وتنظر كذلك إلى غد . فستنشر ما يحيى الأدب القديم ، وستنشر ما يقوى الأدب الحديث ، ولكنها فى الوقت نفسه ستعنى بهؤلاء الشباب الذين يجربون أنفسهم ويحاولون أن يشاركوا فى الانتاج الأدبى ، فستفسح لهم مكانا رحباً بين صفحاتها ، وستتلقاهم رفيقة بهم مشجعة لهم ، ولكن قاسية عليهم فى النقد والاختيار .

فالشباب فى حاجة إلى التشجيع الخالص والرفق ، ولكنهم فى حاجة كذلك إلى التمرين والنقد . ويوشك التشجيع الخالص أن يكون تغريرا ، كما يوشك النقد الملح المسرف فى العنف أن يكون تثبيطا للهمم . وخير الأمور أوساطها .

وستعنى هذه المجلة بأن تعرض على الشرقيين آثارهم عرضاً قوامه النقد الخالص للفن والحق . وبأن تعرض عليهم خلاصات حسنة للحركات الأدبية فى أوربا وأمريكا . لن تقصر عنايتها على أدب دون أدب ، ولن تؤثر باهتمامها ثقافة دون ثقافة ، ولكنها ستفتح الأبواب على مصاريعها للتيارات الأدبية والثقافية من أى وجه تأتى وعن أى شعب تصدر وفى أى لغة تكون . ذلك لأن العلم والفن والأدب أمور تحب لنفسها ، وتتلقاها العقول والقلوب كما هى ، فتسيغ منها ما تسيغ ، وتنبذ منها ما تنبذ وتنتفع بها على كل حال .

وكما أن هذه المجلة لن تؤثر بعنايتها شعباً دون شعب فهى ، كذلك لن تؤثر بعنايتها فريقاً من أدباء العرب دون فريق . وهى على هذه السماحة حريصة أشد الحرص ، تريد أن ترفع الأدب عن هذه الخصومات التى تثيرها منافع الحياة العاملة العاجلة بين الناس. فهى إذن لا تنحاز إلى طائفة، ولا تتعصب لمذهب ، ولا تقيد نفسها إلا بحقوق مصر والأمم العربية فى الكرامة والعزة والحياة الصالحة التى لا يشوبها نقص ولا هوان .

هذه هى الغاية التى نسعى اليها ، والوسائل التى نسعى بها ، والعهد الذى نعطيه على أنفسنا . ونحن واثقون بأننا سنجد من المثقفين كلهم فى الشرق العربى كله ما يلائم هذه الغاية وهذه الوسائل وهذه النية الخالصة من ثقة وعون وتأييد .

الكاتب المصرى

الأدب العربى بين أمسه وغده

لست أدرى أكان الناس يُلقون على أنفسهم فى أعقاب الحروب الماضية مثل ما أخذوا يلقونه على أنفسهم من الأسئلة فى أعقاب الحرب العالمية الأولى وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية. فلم تكد الحرب العالمية الأولى تدنو من غايتها حتى أخذ الناس يتساءلون عما يمكن أن يكون لها من أثر فى الحياة الأدبية وفيما ينتج الأدباء من شعر ونثر. ثم لم تكد الحرب العالمية الثانية ترسل نُذرها إلى الأرض حتى أعاد الناس إلقاء هذه الأسئلة على أنفسهم. ولكل سؤال جواب، كما يقول جميل لصاحبته بثينة. ومن أجل هذا أخذ الناس يتنبئون بما ستصير إليه الحياة الأدبية من قوة أو ضعف، ومن رقى أو انحطاط، ومن تطور فى بعض فنونها ينتهى به إلى النمو أو ينتهى به إلى الانقراض أو ينتهى به إلى تحول خطير أو يسير.

وقد كذّبت الحوادث كثيراً من هذه النبوءات وصدّقت منها كثيراً، وانتهى بعض الأدباء الفرنسيين الممتازين إلى أن يجيب على سؤال من هذه الأسئلة ألقى عليه فى أثناء الحرب العالمية الثانية بأنه لا يعلم أن للحرب أثراً فى الأدب أو أن للأدب أثراً فى الحرب. وليس هذا الجواب إلا نوعاً من أنواع الشك وفنّا من فنون التردد الذى يقضى به الاحتياط على من يريد أن تكون أحكامه صائبة غير مسرفة فى تجاوز الحق. فليس من سبيل إلى أن ننكر أن للأحداث الجسام والخطوب العظام أثرها البعيد فى حياة الناس. ومتى تأثرت حياة الناس فقد تأثرت آدابهم؛ لأن هذه الآداب آخر الأمر ليست إلا تعبيراً عن هذه الحياة وتصويراً لها، فاذا تغير الأصل تغيرت الصورة، وإذا تغير المعنى تغيرت العبارة التى تؤديه.

ولو أن اليونان بلغوا من التعمق ما بلغنا والتمسوا من العلم ما نلتمس، لجاز أن يسأل بعضهم بعضاً عما كان يمكن أن تحدثه الحرب الميدية من الأثر فى آدابهم، ولكان من الممكن أن يتنبأ بعض الفقهاء من أدبائهم بأنها ستحدث آثاراً بعيدة جدًّا لا فى الأدب اليونانى وحده ولكن فى أكثر الآداب التى

سينتجها الناس على اختلاف العصور وتباين الظروف . ولكان من الممكن أن يتنبأ بعض الفقهاء من أدبائهم بأن هذه الحرب الميدية ستدفع الشعر التمثيلى إلى التطور دفعاً عنيفاً ، وستنتج للإنسانية كلها آيات ايسكولوس وسوفوكل وأوريبيد ، وبأنها ستدفع أحاديث القصاص دفعاً عنيفاً إلى التطور ، فتنتج لهم تاريخ هيرودوت ، وتنشئ للإنسانية فنًا من أجلّ الفنون الأدبية خطراً وهو فن التاريخ ، وتنشئ لليونان أنفسهم نترهم الفنى البديع ، وتضع لهم أصول الفلسفة اليونانية الرائعة التى أنتجت سقراط ومن جاء بعده من تلاميذه النابهين .

ولو كان اليونان يبحثون عن مثل ما نبحث عنه ويتقصون من الأمر مثل ما نتقصى ، لجاز أن يتساءلوا عما سيكون لحرب البيلوبونيز من أثر فى حياتهم الأدبية والعقلية ، ولكان من الممكن أن يتنبأ المتنبئون بأنها ستنتج لهم فقه التاريخ وفلسفته كما نراهما فى كتاب توسوديد ، أوستحول فن التمثيل التراجيدى إلى هذا اللون الفلسفى الذى نراه عند اوريبيد ، وستمكن أرستوفان من إنتاج آياته الكوميدية الخالدة ، وستحول سفسطة السفسطائيين اليسيرة إلى هذه الفلسفة العميقة التى كان أرستوفان يهزأ بها وبزعيمها سقراط فى قصة السحاب . ولكن اليونان لم يكونوا يحبون مثل هذه النبوءات ، وإنما كانوا يحبون نبوءات أخرى يسيرة تمس آمالهم وأعمالهم ، وكانوا يلتمسون هذه النبوءات كما كان العرب يلتمسونها عند السوانح والبوارح من الطير ، وفى آيات أخرى كانوا يذهبون فى تفسيرها وتأويلها المذاهب ، فاذا احتفلوا بهذه النبوءات سافروا فى التماسها سفراً قاصداً أو غير قاصد ، فطلبوها عند « أبلون » فى « دلف » أوعند غيره من الآلهة فى معابدهم تلك التى كانوا يلقون فيها الوحى على الأصفياء من الرجال والنساء . فأما مستقبل الأدب ومصير الفن فأشياء لم يكونوا يحفلون بها ولا يفكرون فيها . وحسبهم أن يستمتعوا بما ينتج الأدباء لهم من آيات الشعر والنثر ، وبما ينتج أصحاب الفن لهم من روائع التصاوير والتماثيل والبناء .

والشىء الذى لا شك فيه أن الحرب الميدية صدمت الشرق الأسيوى ببلاد اليونان ، وأن هذه الصدمة العنيفة المتصلة قد أثارت فى عقول اليونان وقلوبهم وأذواقهم شرراً أذكى نارهم العقلية المقدسة ودفعها إلى التوهج الذى ملأ الأرض علماً ونوراً . وأن حرب البيلوبونيز صدمت اليونان بأنفسهم أولاً وبأقطار أوربية أخرى ثانياً ، فكشفت لهم عن ذوات أنفسهم وأظهرتهم من

خلالها على ذات النفس الانسانية أو على بعض النواحى من ذات النفس الانسانية، فأحسوا وشعروا وفكروا كما لم يكونوا يشعرون ويحسون ويفكرون، ثم صوروا وعبروا كما لم يكونوا يصورون ويعبرون . وتستطيع أن تقول مثل هذا بالقياس إلى حروب الإسكندر، ثم بالقياس إلى ما كان بين خلفائه من الحروب، ثم بالقياس إلى حروب الرومانيين فى إيطاليا وفى غير إيطاليا من أقطار الشرق والغرب . كل هذه الحروب أثرت فى الآداب القديمة تأثيراً عميقاً، وأنتجت للإنسانية آيات أدبية خالدة ما نزال نستمتع بها إلى الآن، وستستمتع الإنسانية بها حتى يرث الله الأرض ومن عليها . وأى رمز لذلك أبلغ من أن الألياذة والأوديسا إنما هما نتيجتان لحرب لا يكاد التاريخ يعرف من أمرها شيئاً، وهى حرب طروادة .

ومثل هذا يمكن أن يقال بالقياس إلى أدبنا العربى القديم . فلو تكلف العرب المعاصرون لظهور الإسلام مثل ما نتكلف من البحث والتفكير والتعمق لسألوا أنفسهم عما يمكن أن يكون لظهور الإسلام وما استتبعه من حرب داخل البلاد العربية ومن فتوح خارج هذه البلاد من التأثير فى حياة الأدب العربى، ولكان من الممكن أن يتنبأ الأذكياء من شباب قريش وشيوخها بأن هذا كله سيذهب بالشعر العربى مذاهب لم تخطر لهم على بال، وسينشىء لهم فنوناً من النثر مختلفة متنوعة من العلوم والآداب . ولكن شيوخ قريش وشبابها لم يكونوا يفكرون فى شىء من هذا ولا يقفون عنده ولا يحفلون بما يتصل به من النبوءات، وإنما كانوا كاليونان والرومان يأخذون الأشياء من قريب فيستمتعون بما تقدم الحياة إليهم من خير، ويشقون بما تقدم إليهم من شر . فإذا أبعدوا فى التماس الغيب أسرفوا فى الإبعاد فالتمسوا الغيب عند السوانح والبوارح من الطير، وعند الكهنة ومن يتنزل عليهم من الشياطين، وعند الأنبياء وما يلقى إليهم من وحى وما يهيأ لهم من معجزات، ثم هم كانوا كاليونان والرومان لا يلتمسون الغيب بالقياس إلى حياة العقل والقلب، وإنما يلتمسونه بالقياس إلى حياة الأجسام فى الدنيا وإلى حياة الأرواح فى الآخرة . ومع ذلك فليس من شك فى أن توحيد الأمة العربية بظهور الإسلام قد أنشأ لها أدباً واحداً، ووجه هذا الأدب توجيهاً جديداً . وليس من شك فى أن اصطدام العرب بغيرهم من الأمم قد أذكى فى نفوسهم وفى نفوس هذه الأمم جذوة الأدب والفن والعلم، فامتلأت الأرض معرفة ونوراً، بفضل هذا الاصطدام وما نشأ عنه من الاختلاط

والامتزاج ، ومن معرفة العرب لغيرهم من الأمم ومعرفتهم لأنفسهم ، ومن تعارف هذه الأمم فيما بينها وتعاونها راضية أو كارهة على ما كانت مضطرة أن تتعاون عليه من شؤون الحياة .

ومن يدرى ! لعل القدماء كانوا أدنى منا إلى الحق وأقرب منا إلى الصواب وأشد منا إيثاراً للقصد والاعتدال ؛ فهم كانوا لا يكلفون أنفسهم ما لا تطيق ولا يحملونها ما لا تحتمل ، وإنما كانوا يتلقون الحياة ويحيونها ، ثم يسجلون ما يستطيعون استكشافه من الحقائق والظواهر . فقدماء العرب قد عرفوا ما كان من تطور الأدب العربى بعد وقوعه ، كما عرف قدماء اليونان ما كان من تطور الأدب اليونانى بعد وقوعه . وهم قد سجلوا لنا ذلك تسجيلا مقارباً يسيراً لا تكلف فيه ولا إبعاد . وهم قد عصموا أنفسهم من التورط فى نبوءات تصدّقها الحوادث حيناً وتكذبها أحياناً . وهم قد أراحوا أنفسهم من هذا الشك الذى أتاح لذلك الأديب الفرنسى أن يقول إنه لا يعلم أن للحرب أثراً فى الأدب أو أن للأدب أثراً فى الحرب . والأمر كله يرجع ، فيما يظهر ، إلى أن الرقى الذى أتيح لنا فى حياتنا المادية والعقلية قد دفعنا إلى ألوان من الغرور وخيّل إلينا أنا نقدر على شىء كثير مما لم يقدر عليه القدماء . وما دمنا قد استطعنا أن ننهب الأرض بالقطار والسيارة ، وننهب البحر بالسفن تجرى على ظهره وتسبح فى بطنه ، وننهب الجو بالطائرات ، وننهب الزمان والمكان بهذا كله وبالبرق والراديو ، ما دمنا قد استطعنا أن نقهر الطبيعة ونخترق حجبها ونكشف أستارها ونلغى ما كانت تستطيل به علينا من آماد الزمان والمكان ، فليس ينبغى لغرورنا أن يقف عند حد أو أن ينتهى إلى غاية ، وليس ينبغى لنا أن نتردد فى التنبؤ بما سيكون مادمنا قد استطعنا أن نعرف ما كان . وقد قيل إن التاريخ فن يعين على استكشاف المستقبل بفضل مايعلم من حقائق الماضى . ونحن قد صدّقنا ذلك واطمأننا إليه . وقليل جدًّا من بيننا أولئك الذين يشكون فى أن التاريخ يعلمنا حقائق الماضى ثم يشكون بعد ذلك فى أنه يستطيع أن يكشف لنا عن حقائق المستقبل . وأكبر الظن أن هؤلاء القليلين الذين ينظرون إلى التاريخ نظرة ساخرة مشفقة ، ويلحظونه لحظة باسمة مزدرية ، وينتظرون المستقبل كما ينتظرون المجهول — أكبر الظن أن هؤلاء القليلين هم المصيبون ، ولكننا لا نحب صوابهم هذا ولا نكلف به ، بل لا نطمئن إليه ؛ لأنه يضطرنا إلى التواضع ويردنا إلى الاعتدال ، ويحول بيننا وبين

الغرور أو بيننا وبين الإغراق فى الغرور . وما قيمة الإنسان إذا لم يعبث به الغرور فيخيل إليه أنه قادر على كل شىء ، وأن من حقه بل من الحق عليه أن يحاول كل شىء ! !

من أجل هذا كله تساءل المعاصرون عن أشياء كثيرة ، من بينها مستقبل الحياة الأدبية وما عسى أن تكون الاتجاهات التى سيدفع إليها بحكم هذه الأحداث الجسام التى خلطت الشرق بالغرب والشمال بالجنوب ، وقاربت بين الأجيال المتباعدة ، وألغت هذه الحواجز التى كانت تحجز بين الأمم والشعوب ، وغيرت كثيراً من صور الأشياء ، ثم غيرت كثيراً من قيم الأشياء ، ثم غيرت كثيراً من تأثرنا بهذه الصور وتقديرنا لهذه القيم وحكمنا بعد ذلك على ما هو كائن ، وترقبنا بعد ذلك لما سيكون . فأما المقتصدون من الأدباء الأوربيين فيشكون كما شك ذلك الأديب الذى أشرت إليه آنفاً ، أو يحتاطون فى الحكم ويعتدلون فى التقدير ويحسبون حساباً لهذه الأشياء اليسيرة الضئيلة التى لا نعرفها والتى قد يكون لها أبعد الأثر فى حياتنا العاملة ثم فى حياتنا العاقلة . وليس من شك فى أننا قد علمنا أشياء كثيرة ، ولكن ليس من شك فى أننا لم نؤت من العلم إلا قليلاً ، وفى أن ما نجهله أكثر جداً مما نعلمه ، وليس من شك كذلك فى أننا قد حققنا من الرقى شيئاً كثيراً فى حياتنا العاملة والعاقلة . ولكن ليس من شك فى أن ما حققناه من ذلك ضئيل جداً بالقياس إلى ما ينتظر أن نحققه .

وهذا الذى ينتظر أن نحققه قد يفاجئنا بعضه مفاجأة وعلى غير انتظار ، وقد يتهيأ لنا بعضه عن أناة وريث وبعد سعى وجد واستعداد . فإذا كانت طبيعتنا تدفعنا إلى الغرور والمغامرة فان عقلنا ينبغى أن يضبط هذا الغرور ويحد هذه المغامرة ، ويأخذنا بشىء من التوسط فى القول والعمل جميعاً . فليس من المستحيل أن نحاول التنبؤ بما سيكون من مستقبل الحياة الأدبية ، ولكن ليس من الصواب أن نندفع فى ذلك جامحين فى غير تحفظ ولا احتياط .

وربما كان من اصطناع الدقة والحذر أن أسجل منذ الآن أنى لن أتنبأ بشىء ، لأنى لا أملك الوسائل التى تبيح لى هذا التنبؤ ، وإنما أحاول أن أنظر إلى أدبنا العربى المعاصر نظرة عامة أتتبع فيها بعض حقائق تطوره فى العصور الماضية وأتوسم فيها بعض الممكنات لتطوره فى الأيام المستقبلة . فأنا أنظر إلى أدبنا العربى بين أمسه القريب والبعيد ، وبين غده القريب دون البعيد . وما أزعم لهذه

المحاولة إحاطة ولا شمولا ، وإنما هى محاولة مقاربة تتجنب الإمعان والتعمق ؛ لأن الإمعان والتعمق يحتاجان إلى كتاب لا إلى فصل مهما يكن هذا الفصل طويلا.

وفى تاريخ أدبنا العربى ظاهرة لعله أن يشارك فيها غيره من الآداب الكبرى قديمها وحديثها ، ولكنها تستبين فيه على نحو أوضح وأجلى مما تستبين فى غيره من الآداب . فقد عمر الأدب اليونانى القديم قروناً طوالاً ثم ألقى بينه وبين الناس ستارا ، فلما استأنفت الأمة اليونانية الحديثة حياتها المعاصرة أنشأت لنفسها أدباً مهما تكن الصلة بينه وبين الأدب القديم فهو ليس جزءاً منه ولا استمراراً له . فالأدب اليونانى القديم إذن حى بنفسه ، أريد أنه لايستمد حياته من أمة حية ، تنميه وتقويه وتضيف إليه ، وإنما يستمد حياته من هذه الشخصية القوية التى وهبها له اليونان القدماء . فنحن حين نقرأ آثار هوميروس أو پندار أو أفلاطون لانفكر فى الأمة اليونانية المعاصرة ولا نصل هذه الآثار القديمة الخالدة بما تنتجه من الشعر والنثر ، وإنما نقرأ هذه الآثار وغيرها ونفكر فى الأمة اليونانية القديمة التى أنتجتها ، ونوشك أن نعتقد أن الصلة بيننا وبين هذا الأدب القديم والأجيال التى أبدعته ليست أضعف من الصلة بين الأمة اليونانية المعاصرة وبين ذلك الأدب وتلك الأجيال . وربما كان من المحقق أن بعض البيئات الأدبية والفنية فى غرب أوربا وفى فرنسا خاصة أشد اتصالاً بالأمة اليونانية القديمة وتراثها الأدبى والفنى والفلسفى من الأمة اليونانية المعاصرة نفسها . فلست أعرف مثلا أن الأمة اليونانية الحديثة قد أهدت إلى العالم الحديث شاعراً كراسين أو كاتباً كچيرودو أو شاعراً كاتباً كبول ڤاليرى . وكل هؤلاء وغيرهم من أدباء الغرب الحديث يعيشون مع الأمة اليونانية القديمة ويذوقون أدبها وفنها وفلسفتها ، ويحيون هذا الأدب والفن وهذه الفلسفة على نحو لم تصل إليه الأمة اليونانية الحديثة بعد . ومثل هذا يمكن أن يقال بالقياس إلى الأدب اللاتينى . فهذان الأدبان العظيمان يستمدان حياتهما الخالدة من قوتهما الذاتية ، إن صح هذا التعبير . وهذه الخصلة هى التى تميزهما بين الآداب التى استطاعت أن تقهر الدهر وتكفل لنفسها الخلود .

أما أدبنا العربى فقد عمر بضعة عشر قرناً إلى الآن ، واختلفت عليه فى أثناء هذه القرون خطوب كثيرة متباينة وجهته ألواناً من التوجيه وأخضعته لضروب من التطور ، ولكنه مازال حيًّا قويًّا يستمد حياته وقوته من شخصيته العظيمة ،

ويستمد حياته وقوته من هذه الأجيال التى لاتزال حية محتفظة بفضل من قوة ، والتى لاتزال ترعاه وتكلؤه وتنفخ فيه من روحها كما تستمد منه قوة وأيداً فهى تمنحه وتأخذ منه ، وهى تعيش عليه وتعيش له وتعيش به ، شأنها معه كشأنها مع مايقوم حياتها المادية من الأرض والجبال والأنهار . فالحياة الزمنية للأدب العربى لم تنقطع ، ويظهر أنها لن تنقطع . والصلة بينه وبين الأجيال المعاصرة فى بلاد الشرق العربى من الخليج الفارسى إلى المحيط الأطلنطى وفى بيئات عربية متفرقة هنا وهناك فى أقطار العالم القديم والعالم الجديد — هذه الصلة مازالت قائمة متينة خصبة ، كالصلة التى كانت بين الأدب العربى وبين الأمة العربيـة أيام المتنبى وأبى العلاء . ونتيجة هذا كله أن فى تاريخ أدبنا العربى ظاهرة قوية بينة شديدة الوضوح ، تمكننا من أن نلاحظه ملاحظة مباشرة ، ونستقصى أطواره استقصاء حسناً . فنحن نستطيع أن نبدأ هذه الملاحظة منذ أواخر العصر الجاهلى ، وأن نساير الأدب فى هذه الطرق الطويلة العسيرة المتنوعة الملتوية التى قطعها مسرعاً مرة مستأنياً مرة أخرى متثاقلاً مرة ثالثة أثناء هذه القرون الطويلة ، حتى انتهى إلينا مثقلا بهذا التراث العظيم المختلف المتباين ، الذى يشتد بين أجزائه وعناصره التباين والاختلاف .

ونحن نستطيع أن نبدأ هذه الملاحظة من أنفسنا فى هذا العصر الذى نعيش فيـه ، وأن نساير الأدب العربى مصعدين معه فى التاريخ كأنما نعود أدراجنا ، سالكين معه نفس هذه الطرق ، متبينين فيه هذا التراث الذى تختلف أجزاؤه وتتباين عناصره ، حتى نبلغ أول الإسلام وآخر الجاهليـة . ونحن لانخشى أن تنقطع بنـا الطريق فى الزمان والمكان أثناء مسايرتنا لأدبنا العربى سواء أبدأنا مع تاريخه حين يبدأ فى الزمن القديم ، أم بدأنا مع تاريخه من النقطة التى ينتهى إليها فى عصرنا الحديث .

فالظاهرة التى يمتاز بها أدبنا والتى تمكننا من درسه وتتبع أطواره ، هى أنه قديم جداً وحديث جداً قد اتصل قديمه بحديثه اتصالاً مستقيماً لا انقطاع فيه ولا التواء . ففيه خصائص الآداب القديمة ، وفيه خصائص الآداب الحديثة ، وفيه مايمكننا من استخلاص حديثـه من قديمه ، وما يغنينا عن كثير من الفروض .

أدبنا العربى كائن حى ، أشبه شىء بالشجرة العظيمة التى ثبتت جذورها وامتدت فى أعماق الأرض ، والتى ارتفعت غصونها وانتشرت فى أجواز السماء ،

والتى مضت عليها القرون والقرون ومازال ماء الحياة فيها غزيراً يجرى فى أصلها الثابت فى الأرض وفى فروعها الشاهقة فى السماء .

فلنتتبع هذا الأدب تتبعاً يسيراً مقارباً ، لنرى كيف تطور فى أول عهده ، ولنتبين كيف يمكن أن يتطور فيما يستقبل من الأيام .

وأخص ما نلاحظه فى حياة أدبنا العربى منذ أقدم عصوره ، أنه يأتلف من عنصرين خطيرين لا يحتاج استكشافهما إلى جهد أو عناء . أحدهما داخلى يأتيه من نفسه ومن طبيعة الأمة التى أنتجته . والآخر خارجى يأتيه من الشعوب التى اتصلت بالعرب أو اتصل العرب بها ، ويأتيه من الظروف الكثيرة المختلفة التى أحاطت بحياة المسلمين وأثرت فيها على مر العصور . ولنتفق على أن نسمى هذين العنصرين : التقليد ، والتجديد .

فأدبنا العربى تقليدى ليس فى ذلك شك ، له طابعه العربى البدوى القديم لم يخلُص منه قط ولن يستطيع أن يخلص منه آخر الدهر على رغم ما بذل الأدباء وما سيبذلون من الجهود الهائلة المضنية . مذهبنا فى تصور الأشياء وتقديرها فى أنفسنا قد يختلف باختلاف العصور والأقطار والظروف ، ولكن مذهبنا فى تصوير هذه الأشياء مهما يختلف فسينتهى دائماً عند طائفة من الأصول التقليدية لا سبيل إلى التحول عنها ؛ لأن التحول عنها قتل لهذا الأدب وقطع للصلة بينه وبين العصر الحديث وانحراف به عن طريق الحياة المتصلة التى تسلكها الآداب الحية ، إلى طريق الحياة المنقطعة التى سلكها الأدب اليونانى والأدب اللاتينى . وقل ما شئت فى تعليل الاحتفاظ بهذه الأصول القديمة وإخفاق المحاولات التى همت أن تعدل عنها أو أن تغيرها . فأنا لا أبحث الآن عن العلل والأسباب ، وإنما أسجل الظواهر الواقعة تسجيلا . لتكن طبيعة اللغة العربية هى التى اقتضت ثبات هذه الأصول ، وليكن القرآن الكريم هو الذى اقتضى ثبات هذه الأصول ، ولتكن المحافظة التى يمتاز بها الجيل العربى بين الأجيال هى التى اقتضت ثبات هذه الأصول ، ولتكن هذه الأسباب كلها مضافة إلى أسباب أخرى هى التى اقتضت ثبات هذه الأصول . كل ذلك ممكن ، ولكن الشىء المحقق هو أن الأدب العربى محتفظ بطائفة من الأصول التقليدية لا يستطيع أن ينزل عنها أو يبرأ منها .

فلغته المعربة الفصحى مقوم أساسى من مقوماته ، أو هى المقوم الأساسى

الأول بين مقوماته . وقد انحرف كثير من الناس فى العصور القديمة وفى هذا العصر الحديث عن هذه اللغة المعربة الفصحى ، فأنتجوا آثاراً فيها لذة وفيها متعة ولكننا لم نعدّها أدباً ، ولم نرفعها إلى هذه المرتبة التى نضع فيها هذه الآثار الرائعة والتى نستمد منها غذاء القلوب والعقول والأرواح . وربما كان مما يفسر ذلك ويؤيده أن أدبنا العربى لايهمل الأسماع إهمالا قليلا أو كثيراً ، وإنما يعنى بها أشد العناية ؛ فهو أدب منطوق مسموع قبل أن يكون أدباً مكتوباً مقروءاً وهو من أجل هذا حريص على أن يلذ اللسان حين ينطق به ، ويلذ الأذن حين تسمع له ، ثم يلذ بعد ذلك النفوس والأفئدة حين تصغى إليه .

وليس أدل على ذلك من أن العرب فى جميع عصورهم لم يعنوا بشىء قط عنايتهم بفصاحة اللفظ وجزالته ، ورقيق الأسلوب ورصانته . وقد جعلوا الإعراب واصطفاء اللفظ والملاءمة بين الكلمة والكلمة فى الجرس الذى ييسر على اللسان نطقه ويزين فى الأذن وقعه أساساً لكل هذه الخصال .

ثم من أصولنا التقليدية فى الأدب عمود الشعر ، هذا الذى لم يستطع القدماء تحديده ولكنهم حرصوا عليه أشد الحرص ، وهذا الذى لم يستطع أحد من شعرائنا أن ينحرف عنه فى حقيقة الأمر مهما يُقَلْ فى مسلم ودعبل وأبى تمام والمتنبى وغيرهم من أصحاب التكلف والتصنع والبديع ؛ فهؤلاء وأمثالهم قد همّوا أن يجددوا وجددوا بالفعل فى كثير من الأشياء ، ولكنهم احتفظوا دائماً ، بفصاحة اللغة وجزالتها ، وبرونق الأسلوب ورصانته كما احتفظوا بالأوزان القديمة ، فلما جددوا لم يبتكروا إلا أوزانا يمكن أن ترد إلى الأوزان القديمة على نحو من الأنحاء . ثم لم يستطيعوا على كثرة ما عابوا القدماء وحاولوا الانحراف عن مذاهبهم أن يبرئوا نفوسهم وقلوبهم وفنهم من هذا الحنين الذى فرضته البادية على شعرائها البادين . وقد كان أبو نواس من أشد الناس عيباً للقدماء من الشعراء ومحاولة للانحراف عن مذهبهم فى ذكر الأطلال والرسوم ، ولكنه ذكر الأطلال والرسوم أولاً ، كما ذكرها غيره من الشعراء القدماء ، وحنّ حين حاول التجديد إلى مغانى اللهو والعبث كما كان الاعرابى القديم يحن إلى ديار هند وأسماء . فالحنين قائم عابث بنفس الشاعر وقلبه منبث فى فنه كما ينبث الماء فى الغصن وإن تغيرت المظاهر والألفاظ . وقد أنكر أبو نواس كما أنكر غيره وصف الطرق والابل ؛ ولكن أبا نواس قد وصف

الطرق والإبل كما وصفها غيره من المحافظين والمجددين جميعاً . وقد همَّ الشعراء المجددون أن يتنكبوا ما ألف القدماء من صدق الشعور وإيثار القصد فى التعبير واجتناب الامعان فى المبالغة فتكلفوا وبالغوا . ولكن تكلفهم يرد آخر الأمر وعند أيسر التحليل إلى سذاجة القدما ، كما أن مبالغتهم ترد إلى قصد القدماء واعتدالهم ، أو تصبح مصدراً للسخر والاستهزاء .

وقد حاول الموشحون فى الغرب أن يحطموا الإطار القديم الذى كان يحيط بالقصيدة ، فيزاوجوا بين أوزان وأوزان ، ويخالفوا بين قواف وقواف . ولكن فنهم لم يستطع أن يعمر طويلا ، ففنى فى الزجل ، وأصبح لوناً من ألوان الأدب العامى الذى نبتذله مخطئين أو مصيبين .

فهناك إذن أصول تقليدية فى أدبنا العربى قد أشرت إلى بعضها فى الشعر ولم أستقصها . وقد استطاعت هذه الأصول أن تغلب الحوادث والخطوب وألوان التطور والانقلاب وتسيطر على شعر المعاصرين فى الأقطار العربية كلها . وقد يحاول الشعراء هنا أو هناك شيئاً من التجديد ، فلا يُنجحون إنجاحاً صحيحاً إلا إذا استبقوا هذه الأصول التقليدية ولم يبعدوا عنها إلا بمقدار .. والنثر مع أنه استحدث بعد ظهور الإسلام وبعد تلاوة القرآن وبعد حدوث الأحداث الجسام ، قد اتخذ لنفسه أصولا تقليدية تقارب أصول الشعر ، فحرص على اللغة المعربة ، وعلى الفصاحة والجزالة ، وعلى الرونق والرصانة ، واستبقى مسحة بدوية تشيع فى أثنائه فتسبغ عليه جمالا ساذجاً لا يخلو من روعة وجلال .

ومع أن كثيراً من فحول النثر قد كانوا متأثرين بالثقافات الأجنبية أو منحدرين من أصول أجنبية ، فقد حرص النثر على أصوله التقليدية حرصاً شديداً ، واستمد أكثر هذه الأصول من الشعر الذى اتخذه لنفسه إماما أول الأمر ثم نافسه وغالبه بعد ذلك . وقد تكلف الكتاب كما تكلف الشعراء ، واستعاروا من الشعراء بديعهم وتصنعهم ، ولكنهم خضعوا لمثل ما خضع له الشعراء من الاختيار بين التجديد المقتصد والاسراف الذى ينتهى بهم إلى السخف والازدراء . وأمر النثر فى العصر الحديث كأمر الشعر من هذه الناحية ؛ فكما أنك لا تسمع قصيدة ولا تقرؤها إلا رجعت بها إلى أصولها التقليدية الأولى وإلى الاطار التقليدى الذى يحيط بها ويمكنها من الثبات والاستقرار ومن الجريان على الألسنة وحسن الموقع فى الأسماع والقلوب ، فأنت لا تقرأ كتاباً ولا فصلا إلا رجعت بما تقرأ إلى

الأصول التقليدية القديمة وذكرت هذا الكاتب أو ذاك من كتاب العصر القديم.

ما زال الأصل فى الكتابة كالأصل فى الشعر : تخير اللفظ الفصيح الرصين الجزل ، للمعنى الصحيح المصيب ، والملاءمة بين اللفظ واللفظ وبين المعنى والمعنى فى كل ما يكوّن هذا الانسجام الخاص الذى يستقيم له الشعر والنثر فى لغتنا العربية الفصحى ، مع الحرص كل الحرص على الاعراب ، والايثار كل الايثار للالفاظ الصحيحة التى تقرها معاجم اللغة المعروفة وحدها إن كان الكاتب محافظاً غالياً فى المحافظة ، أو التى جاءت فى قصائد الشعراء ورسائل الكتاب وإن لم ترد فى المعجمات إن كان الأديب سمحاً معتدلا . وقد يجترئ الكاتب فيستعير من لغة الشعب أو من لغة العلم الحديث أو من بعض اللغات الأجنبية كلمة أو كلمات إن كان من المجددين الغلاة فى التجديد . وقد يبلغ بهذا الغلو أقصاه، فينحرف بأسلوبه نحو العامية المبتذلة بعض الانحراف ، أو نحو مذهب من مذاهب الأوربيين فى القول . ولكنه على ذلك كله متحفظ محتاط لا يخرج بالعربية عن أصولها ، وإنما يريد أن يغنيها وينميها ويعرّب ما يضيفه إليها من الألفاظ والأساليب .

فالعناصر التقليدية فى أدبنا إذن قوية شديدة القوة ، مستقرة ممعنة فى الاستقرار مستمرة على الزمن ، وهى التى ضمنت بقاء الأدب العربى هذه القرون الطوال ، وهى التى ستضمن بقاءه ما شاء الله أن يبقى . ولكن هناك عناصر أخرى توازن هذه العناصر التقليدية وهى التى سميتها آنفاً عناصر التجديد ، وهذه العناصر التجديدية هى التى منعت الأدب العربى من الجمود، ولاءمت بينه وبين العصور والبيئات ، وعصمته من الجدب والعقم والاعدام، ومكنته من أن يصور الأجيال المختلفة التى اتخذته لها لساناً ويتيح لها أن تعبر فيه عن ذات نفسها .

فأدبنا العربى كغيره من الآداب الحية ، بل كغيره من كل الظواهر الاجتماعية ، مكون من هذين العنصرين اللذين كان « أوجست كونت » يسمى أحدهما ثباتاً واستقراراً ، ويسمى ثانيهما تحولا وانتقالا . والذى يمتاز به أدبنا العربى من الآداب الحية الأخرى هو أن التوازن لم ينقطع بين هذين العنصرين ، ولم ينشأ عن انقطاعه جمود الأدب وموته بتغلب عنصر الثبات والاستقرار ، أو فناء الأدب وتفرقه بتغلب عنصر التحول والتطور . وليس من شك فى أن أحد هذين العنصرين قد تفوق على صاحبه بين حين وحين فى القوة ، فكان

الأدب فى بعض العصور مسرعاً إلى التطور ممعناً فيه ، وكان فى بعضها الآخر مؤثراً للثبات حريصاً عليه . فقد تفوق عنصر التطور بعد ظهور الاسلام بنحو نصف قرن ، حين نشأ الجيل الجديد من العرب ، واتصل بالأمم الأجنبية منتقلا إليها ومستقرًّا فى أرضها غازياً أومرابطاً أو عاملا فى مصالح الدولة أو مستعمراً . وانتقلت هى إليه فى عقر داره فى الحجاز ونجد ، سبياً وموالى ، تعمل له وتقوم على خدمته وتعلّمه من شؤون الحضارة والثقافة ما لم يكن يعلم . فى هذا الوقت دفع العرب إلى حياة جديدة فى كل شىء . ولم يكن الأدب بطيئاً فى الاستجابة لهذا التجديد ، فتطور الشعر فى ألفاظه وأوزانه وأساليبه وفى معانيه وموضوعاته ، ونشأت فيه فنون لم تكن من قبل ، واستحدث النثر خطباً مطولة وقصصاً مفصلة ، ورسائل موجزة مجملة . ثم كثرت أحداث السياسة ، فتطورت النفس العربية بدوافع جاءتها من داخل ، واشتد الاتصال بين الأمم الاسلامية فتطورت النفس العربية ونفوس الأمم الأخرى المستعربة بدوافع جاءتها من خارج . ثم قوى الاتصال ، فلم يقصر على المجاورة والمعاشرة والمعاملة والتعاون على شؤون الحياة المادية ، وانما قرأ العرب ما كان عند غيرهم ، وقرأ المستعربون ما كان عند العرب ، ونشأ عن قراءة أولئك وهؤلاء هذا التطور الخطير الذى تمتاز به العصور العباسية فى القرن الثانى والثالث والرابع .

ولست محتاجاً إلى أن أفصل هذا التطور أو أطيل القول فيه فان دقائقه معروفة تدرس للشباب فى الجامعة وللتلاميذ فى المدارس الثانوية ، وإنما ألاحظ أن من أهم الأسباب التى دفعت إلى هذا التطور الاتصال الدقيق المستمر بين الثقافة العربية الموروثة من جهة وبين ثقافات الأمم المغلوبة المستعربة من جهة أخرى . فقد اتصلت ثقافة الهند والفرس واليونان والأمم السامية وبعض الأمم المتأثرة بالثقافة اللاتينية فى أسبانيا — اتصلت كل هذه الثقافات اتصالا يختلف قوة وضعفاً ويتفاوت سعة وضيقاً ويتمايز سرعة وبطئا . ونتج عن هذا الاتصال هذا الأدب العربى المختلف المعقد الذى تجاوز الشعر والخطابة والرسائل إلى فنون من العلم والفلسفة وألوان من المعرفة تشبه ما كان العالم يعيش عليه فى القارات الثلاث بين حروب الاسكندر وقيام الدولة العربية . فالدولة الاسلامية لم ترث سياسة اليونان والفرس وحدها ، وإنما ورثت حضارتهم أيضاً ، وورثت معها ما كان عند هذه الأمم من ثقافات متباينة ، نقلتها كلها إلى اللغة العربية ، وصبتها كلها

فى القالب العربى، بحيث يمكن أن يقال إن الحضارة الانسانية التى كان يغلب عليها الطابع اليونانى قد غلب عليها الطابع العربى فى القرون الأربعة الأولى للهجرة . ثم حدثت الأحداث وتتابعت الخطوب ، وأقبل المغيرون من الغرب يحملون الصليب ، وأقبل المغيرون من الشرق يحملون الجهل والوحشية ، وتأثر العقل العربى الإسلامى بهذه الأحداث ، فلم يمت ولكنه اضطر إلى شىء من الوقوف ، وتفوّق عنصر الثبات والاستقرار على عنصر التحول والتطور . ومهما يكن من شىء فقد دفع الأدب العربى إلى التطور فى القرون الأربعة الأولى بحكم الاتصال اليسير بين الأمم أولاً ثم الاتصال الدقيق المنظم بينها ثانياً .

والآن وقد انتهى عصر الوقوف والركود واستؤنف الاتصال بين العالم العربى والعالم الأوربى فى أواخر القرن الثامن عشر، وقوى واشتد فى القرن التاسع عشر ، ثم دق ونظم فى هذا القرن الذى نعيش فيه ، ثم ألغيت المسافات الزمانية والمكانية فأصبح الاتصال فى كل يوم بل فى كل لحظة ظاهرة من الظواهر الطبيعية للحياة المألوفة . الآن وقد كان كل هذا ، ماذا حدث للأدب العربى وماذا يمكن أن يحدث ؟ أما الذى حدث فمعروف يقرؤه الناس فى الكتب ، ويدرسه التلاميذ فى المدارس . وأظهره ما كان من الرجوع إلى الأدب القديم ، وإحيائه بالنشر والاذاعة أولاً ، ثم بالتقليد والمحاكاة ثانياً ، وما كان من تعلم بعض اللغات الأجنبية وقراءة ما ينتج فيها من الآثار ، وترجمة بعض هذه الآثار إلى اللغة العربية فى غير نظام ولا اطراد ، وما كان آخر الأمر من الإعراض عن الحضارة المادية القديمة والاقبال على الحضارة المادية الحديثة ، واستعارة النظم السياسية والاقتصادية والادارية والعسكرية والقضائية من اوربا ، ثم العدول عن العلم الموروث ومناهج تعليمه ، إلى العلم الحى الحديث ومناهج تعليمه الحية المستحدثة ، وإقرار هذا كله فى المدارس والمعاهد ، التى أخذت تكثر وتنتشر فى البلاد العربية كلها وفى مصر منها بنوع خاص .

كل هذا قد غير كثيراً من خصائص النفس العربية ، واضطرها إلى أنحاء من التصور والتصوير لم تكن مألوفة من قبل ، وأخذ عنصر التطور يعمل من جديد، ولكنه كان تطوراً رائعاً حقًّا . كان تطوراً يسعى فى طريقين متعاكستين أشد التعاكس وأقواه . وليس أدل من هذا التطور على قوة الأدب العربى وقدرته على المقاومة ، واستعداده للتغلب على المصاعب والنفوذ من الخطوب .

فقد كان إحياء الأدب القديم وما زال يدفع العقل العربى الحديث إلى وراء ويقوى فيه عنصر الثبات والاستقرار ، كما كان الاتصال بالأدب الأوربى الحديث يدفع الأدب العربى إلى أمام ، ويقوى فيه عنصر التطور والانتقال . والغريب أن العقل العربى الحديث قد ثبت لهذا التعاكس العنيف وانتفع به أشد انتفاع . وكان يخشى فى أواسط القرن الماضى وفى أول هذا القرن ، أن يتم التقاطع بين هذين الاتجاهين ، فيذهب فريق من المتأدبين إلى وراء من غير رجعة ، ويذهب فريق منهم إلى أمام فى غير أناة ، ويضيع الأدب العربى بين هاتين الطريقين المتعاكستين ؛ ولكن الأدب ثبت لهذه المحنة واستفاد منها ، كما تثبت الشجرة العظيمة التى أشرت إليها آنفا للعواصف المتنافرة المتدابرة . وليس من شك فى أن هذا التعاكس قد كان له صرعى ، فجمد بعض المتأدبين وأسرفوا فى الجمود ، ولكنهم قضوا ولم يُعْدوا بجمودهم أحداً ؛ وغلا بعض المجددين من الذين هاجروا إلى أمريكا من سوريا ولبنان ، ولكن غلوهم لم يلبث أن رُدَّ إلى الاعتدال والقصد . والشىء المهم أن الأدب العربى فى الشرق الأدنى وفى مصر خاصة قد استقامت له طريقة تحقق فيها التوازن الصحيح بين القديم والجديد ، على نحو ما تحقق فى العراق والشام ومصر أيام التطور الذى حدث فى القرون الأربعة الأولى ، فاحتفظ بأصوله التقليدية الأساسية ولم يستعص على التطور ، وإنما قبل من الثقافات الأجنبية الحديثة مثل ما قبل من الثقافات الأجنبية أيام العباسيين ، واستحدث من الفنون ما يلائم العصر الحديث كما استحدث من الفنون ما كان يلائم عصر العباسيين . وأول مظهر لهذا هو أن العلم الحديث نفسه قد اتخذ اللغة العربية له لساناً ، وعرض كثيراً من فروعه نفسها فى لغة عربية واضحة كما يعرض فى اللغات الأجنبية المختلفة . ثم استقر فى البلاد العربية ، يدرس فى معاهدها ومدارسها باللغة العربية حيناً ، وباللغات الأجنبية حيناً آخر . يذهب العرب لطلبه فى اوربا وأمريكا ، ويحمله الأوربيون والأمريكيون إلى العرب فى بلادهم . وهنا يظهر الفرق الخطير بين الاتصال العربى القديم بالثقافات الأجنبية القديمة ، والاتصال العربى الحديث بالثقافات الأجنبية الحديثة . فقد كان الاتصال القديم ضيقاً أشد الضيق ، محدوداً لا يكاد ينهض به إلا أفراد يمكن إحصاؤهم . وقد استطاعت كتب التاريخ أن تحفظ أسماء الذين نقلوا إلى العرب ثقافات الهند والفرس واليونان ، وأسماء الذين أساغوا هذه الثقافات وتمثلوها وأذاعوها فى

فنون الأدب العربى المختلفة . أما فى العصر الحديث فليس من سبيل إلى إحصاء الذين يتعلمون اللغات الأجنبية ويعلمونها ، وينقلون منها بالشفاه حيناً وبالترجمة المكتوبة حيناً آخر . فانتشار العناية بتعلم اللغات الأجنبية خصلة يمتاز بها العصر الحديث . وما نعرف أن العرب فى بغداد أو غيرها من الأمصار الإسلامية أنشئوا مدارس لتعلم اليونانية والفارسية أو أرسلوا بعثات منظمة مستمرة إلى بلاد الهند والروم .

وخصلة أخرى يمتاز بها الاتصال الحديث من الاتصال القديم ، وهى أن الاتصال القديم لم يكن مباشراً فى أكثر الأحيان ، وإنما كان يتم بالواسطة ، فالذين كانوا ينقلون من اليونانية إلى العربية مباشرة كانوا أقل من القليل ، وإنما كان النقل من اليونانية إلى السريانية ، ثم من السريانية إلى العربية . ومن هنا وقع كثير من الخطأ والخلط والاضطراب فى النقل . ومن هنا صرف بعض المذاهب الفلسفية اليونانية عن موضعه ، وأضيف بعضها إلى غير أصحابه ، وظهر شىء من الاضطراب فى تاريخ الفلسفة الاسلامية وفى الصلة بينها وبين الفلسفة اليونانية. أما الاتصال فى العصر الحديث فمباشر قلما يتم بالواسطة، فالذين يترجمون عن الإنجليزية والفرنسية يحسنون هاتين اللغتين ويحسنون اللغة العربية أيضاً، فينقلون عن فهم وبصيرة وفى كثير من الدقة والاتقان . وقد يوجد النقل بالواسطة بالقياس إلى بعض اللغات التى لم ينتشر درسها فى الشرق العربى ؛ فقد ينقل الأدب الفرنسى من طريق الفرنسية والإنجليزية ، وقد ينقل الأدب الألمانى كذلك من طريق هاتين اللغتين ، ولكن القراء ينظرون إلى هذا النقل فى كثير من التحفظ والاحتياط ويقبلونه على أنه ضرورة موقوتة ستزول حين يشيع درس اللغات الكبرى على اختلافها . والنقل بالواسطة عندنا أدق وأصح وأدنى إلى الاتقان من النقل بالواسطة فى العصر القديم ؛ فالذين ينقلون كتابا ألمانيًّا من طريق الفرنسية مثلا يضاهون بين ترجمتهم وبين الترجمة الإنجليزية ليتحققوا من أن نقلهم مقارب يمكن أن يساغ . ولم يكن شىء من هذا ممكناً فى العصر القديم . ولعلها أن تكون أجل خطراً من الخصال الأخرى ؛ فقد كان القدماء يتصلون بثقافات أجنبية قليلة محدودة ، وكان اتصالهم بها بطيئاً ضيقاً قليل الإتقان . كانوا يتصلون بثقافة الهند وهى ضئيلة، وكانوا يتصلون بثقافة الفرس وهى ضئيلة أيضاً، وكانوا يتصلون بالثقافة اليونانية العظيمة الواسعة المختلفة ، ولكن اتصالهم نفسه

كان ضئيلا ؛ فهم قد عرفوا الطب والعلم على اختلافه ، وهم قد عرفوا الأخلاق وما بعد الطبيعة ، ولكنهم لم يعرفوا الأدب ولم يعرفوا الفن ، ولم يكادوا يعرفون من السياسة شيئاً . أما الآن فنحن نتصل من طريق مباشرة وغير مباشرة بثقافات لا تكاد تحصى . وأيسر ما يمكن أن يقال هو أننا نتصل بالثقافة الإنجليزية والأمريكية والفرنسية والألمانية والروسية ، وقد نتصل بالثقافة الأسبانية والايطالية ، وقد نقرأ كتباً تنقل إلينا من بلاد أوربا الشمالية ، وأخرى من بلاد أمريكا الجنوبية . وما أكثر ما نقرأ عن بلاد الشرق الأقصى ، وما أكثر ما نقرأ عن بلاد أخرى لم تتحضر بعد ، ولكن الأوربيين قد زاروها واستعمروها وكتبوا عنها ونقلوا إلينا كثيراً من أنبائها. ثم إن ثقافتنا لا تتصل بالثقافات الأجنبية من طريق المكان وحده ، ولكنها تتصل بها من طريق الزمان أيضاً . فقد استكشف كثير من تاريخ الأمم ، وعُرض علينا فى اللغات المختلفة ؛ فنحن نعرف من تاريخ المصريين القدماء أكثر مما كان المصريون القدماء أنفسهم يعرفون من تاريخهم . وليس من شك فى أن علمنا بتاريخ المصريين القدماء الآن ، أدق وأعمق وأوسع من علم المصريين فى أيام البطالسة بهذا التاريخ . وقل مثل ذلك عن تاريخ اليونان والرومان ، وقل مثله عن تاريخ الفرس والهند ، وما شئت من أقطار الأرض المتحضرة . فلا غرابة إذن فى أن هذه الأبواب التى فتحت لنا على مصاريعها ، ونفذت إلينا منها الثقافات الأجنبية المختلفة ، تباعد بيننا وبين ما عرف العرب القدماء من حياة الأمم الأخرى . وقد استطاع أبو العلاء أن يقول :

ما مر فى هذه الدنيا بنو زمن   إلا وعندى من أنبائهم طرف

ولو قد نشر أبو العلاء الآن لعرف أن الأطراف التى كانت عنده ، لم تكن شيئاً مذكوراً بالقياس إلى الأطراف التى نأخذ نحن بها الآن . ومن المحقق أن الإنسانية ستقيس علمها فى آخر هذا القرن ، إلى علمنا نحن فى هذه الأيام ، فترثى لنا وتشفق علينا كما نرثى نحن لأبى العلاء ونشفق عليه . ومهما يكن من شىء فإن الفروق التى أشرت إلى بعضها ، بين اتصال الأدب العربى القديم بالثقافات الأجنبية القديمة ، واتصال الأدب العربى الحديث بالثقافات الأجنبية الحديثة ، خليقة أن تنشىء فروقاً خطيرة بين الأدبين فى أنفسهما . وإذا كانت هذه الفروق

لم تظهر واضحة جلية أثناء القرن الماضى ، فانها قد أخذت تظهر شيئاً فشيئاً أثناء هذا القرن الذى نعيش فيه . ولست أدرى أين قرأت لبعض الأدباء الفرنسيين أن القرن العشرين بالقياس إلى الحياة الأدبية فى فرنسا إنما يبتدئ بالحرب العالمية الأولى . وأكاد أقبل هذا التوقيت بالقياس إلى حياتنا الأدبية العربية . ففى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن ظهرت المقدمات التى تنبئ بما كان أدبنا مشرفاً عليه من تطور خطير . ظهرت آثار الشيخ محمد عبده وقاسم أمين والمويلحى وعبد الله نديم والبارودى وحافظ وشوقى ومطران ، وكان هؤلاء جميعاً وكثير من أمثالهم يصورون آخر عصر وأول عصر آخر ، يصورون طوراً من أطوار الانتقال ؛ فهم كانو يحافظون على كره ، ويجددون على استحياء ، ويرون أن الحياة القديمة قد انقضت أيامها ، وأن فجر حياة جديدة قد أخذ ينتشر فى الأفق شيئاً فشيئاً . ولم يكد هذا القرن يخطو خطوات قليلة حتى ظهر جيل من الشباب نظر إلى الحياة القديمة نظرة سخط عنيف ، ونظر إلى قادة الرأى هؤلاء نظرة حب ورضا وإكبار ، ولكن فيها كثيراً من الإشفاق والرثاء ، وفيها ما يدفع أحياناً إلى الثورة والغضب . فقد كان هذا الجيل من الشباب الناشئ فى أول القرن يقف من قادة الرأى موقف الأبناء من الآباء يحبونهم ويكبرونهم ، ولكنهم يثورون بهم ويخرجون عليهم سراً دائماً وإعلاناً بين حين وحين . والذين يذكرون الأعوام التى سبقت الحرب العالمية الأولى فى مصر خاصة ، يذكرون من غير شك تلك الخصومات العنيفة التى ثارت بين الشباب والشيوخ فى الصحف وفى الكتب والرسائل . ولعل منهم من يذكر عنف العقاد والمازنى وطه حسين بشوقى وحافظ . ولعل منهم من يذكر عنف طه حسين بالمنفلوطى . ولعل منهم من يذكر كل تلك الخصومات التى كانت تثار حول الأدب وحول السياسة وحول حرية الرأى ، فى الصحف السيارة اليومية ، وفى المجلات الشهرية والأسبوعية ، وفى بعض الكتب التى كانت تذاع هنا وهناك . فقد كان هذا كله إنباء بأن تطوراً خطيراً يوشك أن يمس الأدب العربى الحديث فى أغراضه ووسائله ، وفى تصوره وتصويره ، وفى تقديره للأشياء والناس وحكمه على الأشياء والناس . وفى أثناء هذا الوقت كان التعليم المتواضع يزداد انتشاراً وتغلغلا فى طبقات الشعب ، وكان الضمير الوطنى يزداد يقظة وتنبهاً ، وكانت المثل العليا فى الحياة تتغير فى نفوس الشباب تغيراً شديداً ، وكان السلطان فى مصر يضيق بذلك ويستعد لمقاومته ، وكان هذا لا يزيده

إلا استيقاظاً وتنبهاً وإسراعاً إلى التطور . ثم كانت الواقعة الكبرى التى هزت العالم كله خمس سنين ، وانجلت عنه الغمرة ، وإذا كثير جدًّا من شؤونه يتغير فى الحياة العقلية والاقتصادية والسياسية ، وإذا مصر خاصة يصيبها من هذا التطور طرف لا بأس به ، وإذا الجذوة المصرية تتوهج فترسل ضوءها وشررها إلى ما حولها من البلاد العربية ، وإذا الأدب العربى يحيا فى ذلك الوقت حياة عنيفة خصبة مختلفة لم يعرفها منذ زمن بعيد جدًّا .

ثم تتقدم الأعوام شيئاً ، وإذا قرارات تتخذ ، ونُظم توضع ، من شأنها أن تغير الحياة الأدبية فى الشرق العربى تغييراً خطيراً . فقد كان انتشار التعليم من المؤثرات فى تطور الأدب قبل الحرب الأولى ، ولكن انتشار التعليم كان محدوداً ينظمه السلطان البريطانى فى كثير من البخل والتقتير . ولكن أمور التعليم ترد إلى مصر بعد الحرب ، فيتنوع ويزداد انتشاراً ، ويندفع فى هذا التنوع والانتشار ويصدر الدستور فيلزم الدولة بإعطاء المصريين جميعاً مقداراً من العلم يمكنهم من أن يقرءوا ويفهموا ويضطربوا فى الحياة . وتجدّ الدولة فى تنفيذ هذا الدستور منجحة حيناً مخفقة حيناً آخر ، ولكنها تزيد عدد القارئين على كل حال . وقد ظفرت مصر منذ ثورتها فى أعقاب الحرب بحظ من حرية التفكير والتعبير لم تعرفه من قبل ، واشتدت فيها الخصومات حول المثل العليا فى السياسة والأخلاق والاقتصاد والأدب والفن . فكان هذا كله أشبه شىء بالحطب الجزل يلقى فى النار المضطرمة فيزيدها تلظيًّا واضطراماً . وقد صدمت مصر بألوان من الكوارث فى حياتها السياسية حدّت من حرية الرأى والقول بين حين وحين ، ولكنها زادت العقل المصرى قوة وأيداً ، لأنها علمته العكوف على نفسه ، وفتقت له ألواناً من الحيل للتعبير عما كان يريد أن يعبر عنه . ولست أدرى أكان من النافع أم غير النافع لمصر أن تتعثر فى حياتها السياسية ، ولكن الشىء الذى لا أشك فيه هو أن هذه الأزمات السياسية التى وقفت الإنتاج الأدبى شيئاً ما ، قد أنضجت هذا الأدب العربى ومنحته صلابة ومرونة فى وقت واحد ، علّمته كيف يثبت للخطوب ، وكيف ينفذ من المشكلات .

ولم تكن مصر منفردة بهذا التطور العنيف ولا بهذه الأزمات التى كانت تكبو بها مرة وتنهض بها مرة أخرى ، وإنما كان هذا كله حظاً شائعاً لبلاد الشرق العربى كله تقريباً ، فجرى التطور الأدبى متوازناً شيئاً ما ، ولكن مصر امتازت

بمكانها من السبق فى السياسة وفى الاقتصاد، وبما أتيح لها من الثروة التى مكنتها من الإسراع إلى نشر التعليم على اختلاف فروعه. ويكفى أن نلاحظ أن مصر أنشأت جامعتين فى أقل من ربع قرن، ونشرت التعليم الثانوى فى جميع عواصم الأقاليم، ونشرت التعليم الابتدائى فى جميع المدن، ونشرت التعليم الأولى فى كثير جداً من القرى. ذلك إلى تنوع هذا التعليم واختلاف فروعه، وإلى ما أنشئ من المؤسسات المختلفة التى تعنى بهذا الفرع أو ذاك من فروع المعرفة، وإلى إرسال الشباب إلى العواصم الأوربية الكبرى، واستدعاء الأساتذة من هذه العواصم على اختلافها. كل هذا جعل مصر مركزاً خطيراً من مراكز الثقافة العالمية فى الشرق. وكل هذا فتح للأدباء أبواباً من التفكير وشق لهم طرقاً إلى الإنتاج ما كانوا ليعرفوها لو جرت الأمور فى مصر على ما كانت تجرى عليه أثناء الاحتلال وقبل إعلان الاستقلال وإصدار الدستور.

ثم صدم العالم صدمته الثانية، وكانت الحرب العالمية الأخيرة، وذاقت مصر من مرارتها غير قليل، واصطلت بعض نارها ست سنين. وكان أهم ما مس الأدب من هذا كله فرض الرقابة على الإنتاج العقلى. ولست أدرى إلى أى حد ضاق الأدباء بهذه الرقابة، ولكن الذى أعلمه هو أن هذه الرقابة لم تمنعنا من الإنتاج الأدبى الخالص. ولعلها صرفت بعضنا عن الأدب السياسى فاضطرته إلى إنتاج آخر لعله أن يكون أبقى وأجدى من الأدب السياسى. ولأضرب لذلك مثلا الأستاذ العقاد، فقد صرفته ظروف الحرب عن عنفه السياسى وقتاً ما. ولست أعرف أضاق بذلك أم لم يضق، ولكنى أعلم أنه دفع إلى ألوان جديدة من البحث والتفكير، وأنتج كتباً ما أشك فى أن قراءه يؤثرون أيسرها على أدبه السياسى كله. وجملة القول أن الأدب العربى الحديث خضع أثناء ربع قرن لمؤثرات كثيرة مختلفة دفعته إلى تطور خطير من جميع نواحيه: دفعته إلى التطور فى شكله وفى موضوعه، ودفعته إلى التطور سعة وعمقاً وتنوعاً واختلافاً. ويكفى أن نستعرض الفنون التى يمارسها الأدباء لنتبين صدق هذا التقدير؛ فقد أدركنا هذا القرن وأدبنا العربى ينقسم إلى شعر ونثر. وكان شعرنا قديماً يحاول التجديد، وكان نثرنا كتباً يسيرة وفصولا تنشرها الصحف، بعضها يمس السياسة، وبعضها يمس الحياة اليومية وبعضها يحاول التعرض لبعض شؤون الاجتماع، وقليل منها كان يفرغ للأدب الخالص فراغاً تاماً. وكان عندنا تمثيل نستعير قصصه من أوربا ولا نكاد نجيد

عرضه على النظارة ، ولعلنا كنا نسىء إلى فن التمثيل أكثر مما كنا نحسن إليه . وكنا نحاول النقد فنذهب فيه مذاهب القدماء ، وكان الشباب يريدون أن يجددوا هذا النقد فلا يظفرون إلا بالاعراض والانكار . وقد حاول بعضنا أن يحدث فى الأدب فناً جديداً ، فحاول المويلحى رحمه الله أن ينشىء قصة فأنشأ مقامة طويلة ، وحاول حافظ رحمه الله أن يتحدث إلى سطيح فلم يصنع شيئاً .

أما بين الحربين فقد دفع أدباؤنا إلى الأعاجيب . وكان أول هذه الأعاجيب هذه الخصومات السياسية التى يسرت اللغة تيسيراً غريباً ، ومنحت العقول حدة رائعة ونفاذاً بديعاً ، واستطاعت أن تشغل الجماهير وتعلمهم العناية بالأمور العامة والاهتمام لها والتفكير المتصل فيها . وأحدثت أو قل أحيت فى النثر العربى فن الهجاء الذى أتقنه الجاحظ وقصر فيه من جاء بعده من الكتاب . فقد أصبح هذا الهجاء السياسى من أهم الألوان لأدبنا العربى الحديث ، فيه الحدة والعنف وفيه المتعة واللذة ، وفيه التنوع والاختلاف بتنوع الأمزجة واختلافها ، وفيه الايجاز والإطناب ، وفيه التصريح والاشارة .

على أن هذه الخصومة السياسية لم تمس النثر وحده ، وإنما ردت إلى شعرائنا الشيوخ شيئاً من شباب ، فاضطرمت نفس حافظ وشوقى رحمهما الله واستطاعا أن يتصلا بالجمهور بعد أن كانا قد بعدا عنه شيئاً . وهذا الشباب الذى رد إلى شوقى فى أعقاب الحرب العالمية الاولى دفعه إلى تقليد الشعراء التمثيليين الاوربيين فانشأ شعراً تمثيلياً قد نرضى عنه أو لا نرضى عنه ، ولكن كثيراً منه فتن الذين قرءوه وسمعوه فى دور التمثيل .

وهذه الخصومة السياسية دفعت صحف الأحزاب المختصمة إلى التنافس فافتنت فيما جعلت تنشر من الفصول ، وإذا الادباء يستعرضون الادب القديم يحيونه حياة جديدة بالنقد والتحليل . وإذا هم يستعرضون الآداب الاوربية الحديثة يذيعونها ناقدين ومحللين ومترجمين ، وإذا هم بعد هذا كله يرقون إلى إنشاء الدراسات التى تطول حتى تصبح كتباً تستقل بنفسها ، وتقصر حتى تصبح فصولا تنشر فى الصحف والمجلات ، ثم يجمع بعضها إلى بعض فاذا هى أسفار قيمة يجد فيها القارىء نفعاً ولذة ومتاعاً . فهذا نوع جديد من الأدب عرفه الاوربيون منذ زمن بعيد ولم نعرفه نحن إلا فى هذا العصر الحديث . ثم ننظر فاذا تمثيل شعبى ينشأ فجأة يصور حياة الثورة وما استتبعته من تطور الأخلاق وتغير القيم ،

وإذا نحن نشغف بهذا التمثيل الشعبى، ولكنا نشهده للهو وقطع الوقت ولا نرقى به إلى مرتبة الأدب الرفيع، فيشعرنا ذلك بأن للتمثيل مكانة أدبية يجب أن تعرف له فى مصر. وإذا نحن ننشئ فرقة للتمثيل، وإذا القصص التمثيلية توضع لها حيناً وتترجم لها أحياناً، وإذا أدبنا التمثيلى قد نشأ متواضعاً ولكنه قد نشأ على كل حال. وكل هذا لا يكفينا، فقد قرأنا القصص الأوربى طويله وقصيره ومتوسطه، وقرأناه فى اللغات المختلفة، وسألنا أنفسنا شاعرين بذلك أو غير شاعرين: ما بالنا لا نقص فى لغتنا كما يقص الأوربيون والأمريكيون فى لغاتهم؟ ثم حاولنا مقلدين أول الأمر، مبتكرين بعد ذلك، وإذا نحن نبلغ من الإجادة فى هذا الفن الجديد حظاً عظيما، وإذا قصصنا يشيع فى الشرق العربى ثم ينقل إلى الغرب الأوربى، وإذا قصصنا يختلف فى موضوعه وأغراضه ومذاهب الكتاب فيه على نحو ما يختلف القصص الأوربى فى هذا كله. وإذن فنحن قد دفعنا شاعرين أو غير شاعرين إلى أن نسمو بأدبنا العربى إلى مكانة الآداب الحية الكبرى، وبلغنا من ذلك حظاً ليس به بأس وإن لم نبلغ من ذلك ما نريد. ومتى بلغ الناس ما يريدون!

والشىء الذى ليس فيه شك هو أن أيسر الموازنة بين أدبنا هذا الحديث الذى لا نكاد نرضى عنه أو نقنع به، وبين أدبنا ذلك القديم الذى فتنا به فتونا، يدل على أننا قد وثبنا بالأدب العربى وثبة لم يكن القدماء يحلمون بها ولم تكن تخطر لهم على بال. وقد كان العصر العباسى عصراً ممتازاً فى التاريخ الأدبى من غير شك، ولكن عصرنا نحن أشد منه امتيازاً وأكثر منه خصباً وأعظم منه استعداداً للبقاء.

على أن هناك تطوراً آخر لأدبنا الحديث أعظم خطراً وأبعد أثراً من كل ما قدمت، وهو الذى سيوجه الأدب فى المستقبل القريب إلى غاياته التى لا يستطيع عنها تحولا أو انصرافاً فيما أعتقد. ولهذا التطور الخطير وجهان: أحدهما يتصل بأشخاص الأدباء، والآخر يتصل بالموضوعات التى يطرقها الأدباء. فأما الوجه الأول فنستطيع أن نتبينه فى سهولة ويسر إذا نظرنا إلى حافظ وشوقى والمنفلوطى من جهة وإلى العقاد والمازنى وهيكل من جهة أخرى. فقد كان الأدباء الثلاثة الأولون لا يعيشون لأدبهم وإنما يعيشون بأدبهم. أريد أنهم كانوا يتخذون الأدب وسيلة إلى الحياة وإلى حياة لا تمتاز بالاستقلال. كان كل واحد منهم

فى حاجة إلى حماية تكفل له مايحب من العيش والمكانة. ولابد له من «مسين»، كما يقول الأوربيون، يحميه ويعطيه ويحوطه بالرعاية والعناية، ويدفع عنه العاديات والخطوب. أما الثلاثة الآخرون فثائرون على هذا النوع من الحياة، مبغضون لهذا النوع من الأدب، يكبرون أنفسهم أن يحميهم هذا العظيم أو ذاك، ويكبرون أدبهم أن يرعاه هـذا القوى أو ذاك. هم يعيشون أولاً ويعيشون أحراراً، ثم ينتجون أولاً وينتجون أحراراً. وهم يأبون أن يؤدوا عن إنتاجهم الأدبى حساباً لهذا أو ذاك. هم مستقلون فى إنتاجهم الأدبى بأدق معانى هذه الكلمة وأكرمها.

وقد تقول إنهم ينتجون للجمهور، فهم مدينون للجمهور بحياتهم الأدبية. ولـكن الجمهور هذا شىء شائع مجهول لا يستطيع أن يعبث بحرية الأديب ولا أن يعرض كرامته لما لا يحب. وكل إنسان فى بيئة متحضرة إنما يعيش للجمهور وبالجمهور، كما أن الجمهور نفسه يعيش لـكل إنسان وبكل إنسان. فالظاهرة الخطيرة فى أدبنا الحديث هى هذه الـكرامة التى كسبها الأدباء لأنفسهم ولأدبهم والتى مكنتهم من أن يكونوا أحراراً فيما يأتون وفيما يدعون.

أما الوجه الثانى لهذا التطور فهو أن هذه الحرية نفسها قد فتحت للأدباء ابواباً لم تكن تفتح لهم حين كان الأدب خاضعاً للسادة والعظماء. وقد أثرت ظروف التطور الإنسانى فى توجيه هـذه الحرية. فقد كان الأدباء القدماء يؤثرون السادة والعظماء بما ينتجون، فأصبح الأدباء المحدثون يؤثرون أنفسهم ويؤثرون الفن ويؤثرون الشعب بما ينتجون. وكذلك عكف الأدباء على أنفسهم فحللوها وعرضوها، واستخرجوا من هذا التحليل علماً كثيراً ومتاعاً عظيماً. وكذلك فرغ الأدباء لفنهم فجودوه كما يريدون وكما يستطيعون وكما يريد الفن، لا كما يريد هذا السيد أو ذاك.

وكذلك عكف الأدباء على الشعب، فجعلوا يدرسونه ويتعمقون درسه، ويعرضون نتائج هذا الدرس، ويظهرون الشعب على نفسه فيما ينتجون له من الآثار. وهذا كله قد رفع الأدب إلى الصدق والدقة، وجعله إنسانياً لا فردياً، ووضعه حيث وضعت الآداب الحية الـكبرى نفسها بحكم التطور الذى دفعتها إليه ظروف الحياة الحديثة.

فاذا أردنا أن نتبين الاتجاهات التى سيدفع إليها الأدب العربى غداً، بعد أن عرفنا اتجاهات الأدب العربى فى ماضيه القريب والبعيد، وبعد أن رأيناه يحيا بين

أيدينا فى حاضره الذى نشهده الآن، فقد يخيل إلىّ أننا نستطيع أن نستنبط هذه الاتجاهات من بعض الحقائق الواقعة . وأول هذه الحقائق الواقعة هو هذا الاستقلال الذى كسبه الأدباء لأنفسهم ولأدبهم . فهم قد أخذوا بحظ من الحرية . وهم لن يكتفوا بما أخذوا ، ولكنهم سيمعنون فى استقلالهم وحريتهم حتى يرتفعوا عن كل رقابة مهما يكن مصدرها ، وحتى يتعرضوا — وقد تعرضوا بالفعل — لبعض الأذى فى سبيل هذه الحرية .

ومن هذه الحقائق الواقعة أن التعليم ينتشر انتشاراً هائلا ، ينشأ عنه كثرة القراء من جهة ، واختلاف هؤلاء القراء فى حظوظهم من الثقافة من جهة أخرى . وسيكون لهذه الحقيقة تأثير خطير ، فى الأدب ، فسيحرص بعضهم على كثرة القراء وانتشار آثاره ، وسيضطر إلى ملاحظة هذه الكثرة كما كان الأدباء القدماء يلاحظون سادتهم ومواليهم . وسيضعف أدب هؤلاء حتى يصل إلى الابتذال أحياناً ، ولعلنا نشهد بعض ذلك منذ الآن . وسيحرص قوم آخرون من الأدباء على كرامة الفن وجودته أكثر مما يحرصون على انتشاره وشيوعه ، فيجودون أدبهم ويحفلون بهذا التجويد ، ثم يرسلون أدبهم إلى القراء غير حافلين بالرضا أو السخط ، ولا بما ينتجه الرضا أو السخط من الفقر والثراء .

وهؤلاء هم قوام الحياة الأدبية ، وهم هداة الناس وقادتهم إلى الحق والخير والجمال .

وهناك حقيقة واقعة رابعة ، وهى أننا نعيش فى عصر السهولة والسرعة ، فى عصر الراديو والسينما والصحف اليومية والمجلات اليسيرة والجمهور القارئ الضخم والمواصلات السريعة ، وكل هذا سيعرّض الأدب والأدباء ، وقد أخذ يعرضهم بالفعل ، لمحنة قاسية ، فسيلتجىء الراديو والصحف والمجلات إلى الأدباء ، وسيتعجلهم فى الانتاج ، وسيضطرهم إلى السرعة ، وسيحول بينهم وبين الأناة التى تمكنهم من التجويد ، وسيجدون أنفسهم بين اثنتين : إما أن يستجيبوا للراديو والصحف والمجلات فيضعف فنهم ويبتذل بعض الشىء ، وإما أن يمتنعوا عليها فيشقوا على أنفسهم ويخلوا بين الجمهور وبين أصحاب الأدب الرخيص . وأكبر الظن أنهم سيلاءمون بين هذا كله ، فيؤثرون الفن بالانتاج الهادئ البطىء الذى يحتفلون به ويفرغون لتجويده ويذيعونه فى الناس متى أرادوا هم لا متى أراد الناس ، ويقدمون إلى الجمهور من طريق الراديو والصحف والمجلات أدباً يسيراً ،

مهما يكن من يسره فلن يكون من الرخص والابتذال بحيث يصبح خطراً على الجمهور .

وهناك حقيقة واقعة خامسة ، وهى أن هذه الثقافات الكثيرة التى تصل إلى أدبنا الآن من كل وجه ستوجه كتابنا اتجاهات مختلفة ، فنهم من يساير الثقافة الإنجليزية ، ومنهم من يساير الثقافة اللاتينية ، ومنهم من يذهب مذهب الروسيين فى الأدب ، ومنهم من يذهب فيه مذهب الأمريكيين . ويوشك هذا الاختلاف أن يفسد الأمر على أدبنا العربى لولا أن أدبنا ليس بدعاً فى ذلك من الآداب الكبرى . فكل أدب خليق بهذا الاسم يأخذ ويعطى ويتلقى الثروة من كل وجه . والمهم أن يحتفظ الأدب بشخصيته ويحرص على مقوماته ، ويحسن الموازنة بين عناصر الثبات والاستقرار وعناصر التحول والتطور . وسيوجد بين أدبائنا من يتطرف فى هذه الناحية أو فى تلك ، ولكن ستوجد بين أدبائنا هذه الصفوة التى تعرف كيف تلائم بين مصادر الثروة الأدبية على اختلافها ، وكيف تستخلص منها هذا الرحيق الذى تقدمه غذاء للعقول وشفاء للقلوب والنفوس .

وهناك حقيقة واقعة سادسة ، وهى التى أريد أن أختم بها هذا البحث الطويل ، وهى أن الحياة الإنسانية على اختلاف بيئاتها تتجه الآن اتجاهات شعبية لا فردية . ومن طبيعة هذه الاتجاهات الشعبية أن تستغرق كل شىء وتلتهم كل شىء . ومن طبيعة الأدب الرفيع والفن الجميل أن يمتاز ويأبى الفناء فى أى قوة مهما تكن . فسيمتحن الأدباء فيما يحرصون عليه من الامتياز ، وسيتعرضون إما للعزلة المؤذية أو الخلطة التى تدعو إلى الابتذال . ولكنهم سيلائمون فى أدبنا العربى كما لاءم زملاؤهم فى الآداب الأخرى بين امتياز أدبهم الرفيع وطموح الشعوب إلى أن تستغرق كل شىء . وسيكون أدبهم الرفيع الممتاز مرآة صافية صقيلة رائعة لحياة الشعب ، يرى فيها الشعب نفسه فيحب منها ما يحب ويبغض منها ما يبغض ، ويدفعه حبه إلى التماس الكمال ، ويدفعه بغضه إلى التماس الإصلاح . وينظر الأدب العربى الحديث فإذا هو فى مستقبل أيامه كالآداب الحديثة الكبرى ، قائد الشعوب إلى مثلها العليا من الخير والحق والجمال .

طه حسين

تكافؤ الفرصة

بين الجد والهزل

سيدى الدكتور

أمّا الجد فقد فرغنا له ثلاث سنين ، وفرغنا منه فى سنة ١٩٤٤ — وأما الهزل فقد بدأ فى سنة ١٩٤٥ . ولكل من الجد والهزل مقياس . والمقياس لغة هو القانون . فاذا أردت أن تعرف حد الهزل فى « تكافؤ الفرصة » وجب أن ترجع إلى رجال القانون الذين يتولون شؤون التربية والتعليم ، فقد قالوا « إنّ الهزل ضد الجد . والمراد به أن ينطق الإنسان بالعبارة راضياً مختاراً . لكنه لا يريد معناها الحقيقى ولا المجازى ، بل يصدر عنه الكلام لعباً محضاً لا يقصد به أى معنى » . ولا أكتمك يا سيدى الدكتور أننى تشاءمت بعبارة « تكافؤ الفرصة » عندما اهتدينا إليها فى سنة ١٩٤٣ . فمن الألفاظ ما يجر الشؤم على المعانى ، ومنها ما يجر الفأل والبركة . وكان خليقاً بنا أن نتطير من هذين اللفظين وبخاصة لفظ « التكافؤ » ؛ فقد جرى به قلم محكمة النقض والإبرام سنة ١٩٣٤ . جرى به هذا القلم فى معرض المهاترة والسب والقذف ، فقررت المحكمة العليا أنّ القذف والسب المتبادلين لا يقتضيان التعويض لما بين القاذفين من تكافؤ فى السيئات . ولذلك قلت إننى تشاءمت بهذا اللفظ . وها أنت ترى أنّ مبدأ تكافؤ الفرصة أصبح سيئة من السيئات كما قررت المحكمة العليا . وقد أدركت الآن أنّ تطبيق هذه القاعدة تطبيقاً صحيحاً يدك نظام المجتمع المصرى ؛ لأنّ تعليم الفقراء يفقر الأغنياء ، وفقر الأغنياء داهية دهياء . ولا يخفى عليك يا سيدى الدكتور أنّ المتعلمين هم زينة المجتمع . ومن الخطأ البين أن نحاول تعليم الشعب كله فيصبح الشعب كله زينة . وإخالك لا تجهل أنّ « أمراض الزينة » عند الأطباء من الأمراض الملعونة . ومن عجب يا سيدى الدكتور أنك تخطب وتكتب ، ولكنك لا تعلم حقيقة ما تكتب ولا تدرك معنى ما تقول . أنت من أضعف خلق الله ، ولكن الله وضع فيك سرًّا . وقد رأينا من ضعاف الناس من

تجرى على ألسنتهم أسرار الغيب ، وهم لايعلمون أنهم يتكلمون بما وراء العيب .. وإنّ كلامهم — كما يقول الصوفية — مستخلص من الطبائع متصل بحقيقة الحقائق . وقد تعودت أن أرجع إلى مواضع « طلب المعانى » فى « مدارك » الصوفية لأدرك معنى أقوالك ، وما يجرى الغيب على لسانك . من ذلك أننى قرأت لك مقالا فى إحدى المجلات فى عام ١٩٤١ عن مستقبل الديموقراطية بعد الحرب . كان لك فيه آمال ومتمنيات ؛ من أمثال تكافؤ الفرصة ونشر التعليم ، ثم ختمت مقالك ببيت من الشعر !

مُنًى أن تكن حقًّا تكن أحسن المنى
وإلاّ فقد عشنا بها زمناً رغدا

فلما رجعت إلى كتب الصوفية وبخاصة أقوال نجم العرفان المسندة إلى قطب الواصلين ، وجدت أنهم عقدوا لهذا البيت باباً بل أبواباً بعنوان « الأمانى الكاذبة ومضارها » . ولم يقتصر كلامهم فى هذه الأبواب على الأمانى الكاذبة فى العلم والتعليم بل تناول كذلك الأمانى الكاذبة فى الغذاء والكساء . ثم قالوا فى أمثالك يا سيدى الدكتور إنكم « مغرمون بوصال صورة وهمية خيالية . مثلكم مثل الجائع والعارى يصور فى وهمه صورة الغذاء والكساء وهو لا يأكل ولا يلبس » . وقد أنحوا عليكم باللائمة واعتبروكم مجانين . وأنت تعلم يا سيدى الدكتور أنّ المجنون شر من الأمى . وقد وصفك بعض كتاب الدنيا بأنك أمى فاحمد إليهم الله ، الذى لا يحمد على مكروه سواه . أمّا سند الصوفية فى أنك مجنون ، فهو قولهم « العقل لوح فارغ ، والخواطر نقوش تنقش فيه ، فكيف يليق بالعاقل أن تكون نقوشه ما بين غرور وأمانى باطلة وسراب لا حقيقة له » .

ولذلك ينبغى لك يا سيدى الدكتور أن تحذر شؤم هذا البيت من الشعر ، كما ينبغى لى ولك أن نحذر من شؤم تكافؤ الفرصة .

وأولى بى وبك بل أولى بمصر كلها أن نتمثل بقول الشاعر :

أمنيــة ظفرت نفسى بهـا زمنـاً
واليوم أحسبهـا أضغاث أحـلام

لقد طبقنا « تكافؤ الفرصة » كما أمر عمر بن الخطاب حين قال « آس بين الناس » ولكنا حفظنا شيئاً وغابت عنا أشياء ... غاب عنا أنّ المحبة الصادقة للعلم تمنع قبول المشاركة فى المحبوب . فلا ينبغى للعلماء إن كانوا صادقين فى محبتهم للعلم أن يسهلوا للجهلاء سبيل مشاركتهم فيه . وبهذا وحده يمكنك يا سيدى الدكتور أن تعلل محاربة من تعاموا بالمجان للفقراء من طلاب العلم . وحقيقة الحال أنه لا يمكن تعليل ذلك إلاّ بصدق المحبة للعلم وعدم قبول المشاركة فى المحبوب . وغاب عنا أنّ الشر إذا كان مشتركاً يصبح خيراً . وأنّ الأمانى أوفر حظاً فى اللذة من تحقيقها . ولم يكن ينبغى أن يغيب ذلك عنك . فأنت تزعم أنك أديب الشرق ، ومع ذلك لا تذكر قول الأصمعى « تمنيك الشيء أوفر حظاً فى اللذة من قدرتك عليه » . وقد أدرك شانئوك هذا الذى غاب عنك ... فتكافؤ الفرصة وهو أمنية ، أوفر حظاً فى اللذة من تكافؤ الفرصة بالفعل . وقد حسبت أنّ الدنيا كلها معك حين بشرت بهذا المبدأ ، وغاب عنك أنك شيطان وأنّ الباطل كله يتحيز مع الشيطان . وكذلك حسبت أنّ الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء كما يقول المسلمون . ولهذا عاونت الفقراء ، راجياً أن تسبق إليها معهم . وغاب عنك أيها المفتون أنهم إنما يدخلون الجنة قبل الأغنياء لأنهم يموتون قبلهم .

وقد وفق الله للخلاص منك على طريقة الصوفية تماماً ؛ فقد فطن الصوفية لشأن التربية من زمن طويل ، فجاء فى كتاب الإبريز أنّ الإصلاح لا يمكن أن يتم إلاّ على يد « شيخ التربية » . وأنّ المقصود من التربية هو « تصفية ذاتك ، وتطهيرها من رعوناتك » . وأوجبوا على المريدين والذين يلون « شيخ التربية » من المربين ألا يرضوا سوى شيخهم ، وأن يدوروا معه حيثما دار ، وإن بعد « شيخ التربية » فى الظاهر عن الحق بعداً بيناً . ذلك لأنه قد تصدر من الشيخ صورة مذمومة فى الظاهر وهى محمودة فى الباطن ، فيجب أن يسلم إلى الشيخ وأن ينقاد إليه كل من له عقل سليم وطبع مستقيم .

وتسألنى لماذا لم أعهد فى الإصلاح إلى « شيخ التربية » على طريقة الصوفية ؟ فأجيب : وما أنسانيه إلاّ الشيطان ؛ فقد زين لى قراءة كتب الحيوان ، وحالها على عهد سليمان . ثم قرأت فى هذه الكتب أنّ « شمس المعالى » أمير جرجان وبلاد الجبل وطبرستان قال فى القنفذ : « يتحير المعتبر فى آياته ، ويكل النظر فى

معجزاته ، وهو محارب حصنه من نفسه ومقاتل رماحه على ظهره ، وأنه إذا نام عنه الناس لم ينم » .

وكذلك جاء فى كتب الحيوان أن القنفذ كان من مستشارى سليمان الحكيم.

وقد تعلم أو لا تعلم يا سيدى الدكتور أنك قنفذ من الطبقة الأولى ، محارب حصنك من نفسك ، ومقاتل رماحك على ظهرك ، لا تنام ولو نام عنك الناس .

وقد كان القنفذ مستشاراً لسليمان الحكيم كما قال « شمس المعالى » ، فلماذا لا يكون مستشاراً لصاحب المعالى .

ولتذكر يا سيدى الدكتور أن القنفذ كان أعلم الناس على عهد سليمان ، كما أنك أعلم الناس فى هذا الزمان .

وقد رأيتك ضائق الصدر بنفر ممن أحسنت إليهم فأساءوا إليك وتجنوا عليك . ثم قال رجل طويل اللسان إنهم « كلاب » يلهون مع اللاهين ، ويسهون مع الساهين ، ويميلون مع المبطلين . لكنك ياسيدى الدكتور غضبت « للكلاب » فلم أفهم سر غضبك . فلما رجعت إلى قنفذ سليمان وجدت أن هذا المستشار الأول غضب « للكلاب » أيضاً .

وفى هذا يقول الرواة أن سليمان عليه السلام أرسل إلى مستشاره القنفذ الفرس والبازى يدعوانه فلم يجبهما ، ثم أرسل إليه الكلب فأجابه وجاء به . فقال له سليمان لم لا تجيب الفرس والبازى ؟ قال لأنهما خائنان ؛ إذ الفرس يعدو بالعدو كما يعدو بصاحبه ، والبازى يطيع غير صاحبه . وأما الكلب فإنه ذو وفاء حتى لو طرده صاحبه عاد إليه ثانياً .

ويزعم الزاعمون يا سيدى أنهم يستقلون ما عملنا . فأذكر أن نفراً من الصحابة جاء إلى دار النبى عليه الصلاة والسلام فسألوا أزواجه عن عبادته وقيامه وصيامه ، فذكرن لهم عبادته فاستقلوها . ثم قالوا : لسنا كالنبى فانه عبد قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . ثم قال أحدهم: أما أنا فأصوم الدهر كله ، وقال الآخر: أمّا أنا فأقوم الليل كله .

وهكذا بلا تشبيه ولا تمثيل حالك وحال أمثالك فى هذه الأمة المجنونة التى تعلن أنها تثق بفلان وفلان فى الحال والاستقبال ، وأنها تغفر لهم ما تقدم من ذنبهم وما تأخر .

أمّا أولئك النفر من أصحابك فإنهم قوم لا تثق بهم الأمة ، لا فى الحال

ولا فى الاستقبال ، ولم تغفر لهم من ذنوبهم ما تقدم وما تأخر . فلا تعجب إن هم استقلوا جهودى وجهودك ، ثم قالوا كما قلنا إنّ العلم كالهواء والماء ، ولعلهم قالوا كالغذاء والكساء .

ولكنك تهزأ بهذا القول وتسخر منه ، وتؤكد أنهم إلى الآن لم يعملوا شيئاً . فاذكر ياسيدى الدكتور أنّ « شيخ التربية » الصوفى قد قال ذات مرة للمريدين : « إننى أخاف من كل فعل لأنه قد يكون سبباً لهلاكى . فاذا أردت أن أخطو خطوة رفعت رجلى فارتعدت فى الهواء ، ثم رددتها فارتعدت ، ثم أعدتها إلى ناحية الخطوة فارتعدت ، وهكذا لا أكمل الخطوة حتى يقول من يرانى ما به إلاّ الجنون . وما يزال الواحد منكم على الطريق حتى يصل إلى هذه المرتبة » .

* * *

ولو أنطقنا « تكافؤ الفرصة » بلسان الحال لقال « رضيت من الغنيمة بالإياب » . وهو مثل فى الخيبة يضرب عند القناعة بالسلامة لمن سعى إلى شىء فلم ينله غير أنه لم يعطب . وأؤكد لك يا سيدى الدكتور أنّ « تكافؤ الفرصة » لم يعطب وإن خاب إلى حين .

ودليل ذلك أنه محمود بكل لسان ، سواء فى ذلك الملاك والشيطان .

احمد نجيب الهلالى

الخلق فى الفن

ليس الخلق أن تخرج من العدم وجوداً . إنما الخلق فى الفن — وربما فى غيره أيضاً — أن تنفخ روحاً فى مادة موجودة . كذلك صنع أعظم الخالقين يوم أوجد آدم . لم يمد يده العلوية إلى الفضاء قائلاً : « كن ! » فكان . ولكنه مد يده إلى الطين — مادة وجدت قبل آدم — فسوى منه ذلك المخلوق الحى . لا شىء يخرج من لا شىء . كل شىء يخرج من كل شىء . ذلك هو الدرس الأول فى الخلق ، وقد تلقيناه عن الخالق الأكبر .

وليس الابتكار فى الفن كذلك أن تطرق موضوعاً لم يسبقك إليه سابق ، بل الابتكار هو أن تتناول الموضوع الذى كاد يبلى فى أصابع السابقين ، فاذا هو يضىء فى يديك بروح من عندك . الكثير من موضوعات « شكسبير » نقل عن « بوكاشيو » . وبعض « موليير » عن « سكارون » . و « جوته » فى فاوست عن « مارلو » . ومآسى « راسين » عن مآسى « ايروبيد » . وايروبيد وسوفوكل وأشيل عن « هوميروس » ، وشعراء الشعب المجهولين المتنقلين بالأساطير . . .

ليس الموضوع فى الفن بذى خطر . وليست الحوادث والوقائع فى القصص والشعر والتمثيل بذات قيمة . ولكن القيمة والخطر فى تلك الأشعة الجديدة التى يستطيع الفنان أن يستخرجها من هيكل تلك الموضوعات والحوادث والوقائع .

إن الفن ليس فى الهيكل . إنه فى الثوب . الفن هو الثوب الجديد الذى يلبسه الفنان للهيكل القديم . إنه الكسوة المتجددة لكعبة لا تتغير .

وليس هذا بالمطلب اليسير . فما أشق الاتيان بجديد فى موضوع غير جديد ! وما أعسر الكشف عما لم يكشف فى بناء تقتحمه العيون ، وتنقب فيه العقول ، فى كل الشعوب وكل الأزمان . من أجل هذا كان عمل «راسين» فى «أندروماك» تلك الشخصية التى تناولتها من قبله المواهب والأذهان ، أعظم فى تاريخ الأدب من عمل « بونسون دى تيراى » فى « روكامبول » ، تلك الشخصية التى اخترعها من رأسه اختراعاً ، ونسج حوادثها العجيبة من مخيلته نسجاً .

قال « شسترتون » فيما أذكر ، مقدماً لكتاب من كتب « دبكنز » : إن الشاعر خصب القريحة ليس ذلك الذى يسلك طريق الإغراب ؛ فان أرفع مراتب الابتكار قد يتسنمها شاعر يتغنى فى « الربيع » .

وقد تسألنى : ما هو الابتكار ؟ فأقول لك بسرعة وبساطة : هو أن تكون أنت ، هو أن تحقق نفسك .

إن أعظم معجزة فى الكون للخالق الأعظم هى « شخصية الانسان » . ملايين الملايين من البشر تتعاقب ، فلا تطابق شخصية أخرى تمام الانطباق ، فى الأجسام والمشاعر والعقلية والروح والذوق والطبع . كل شخص يظهر فى الأرض جديد ، جدة تنبثق معه وتختفى معه إلى أبد الآبدين . أى معين من الخلق الإلهى لا ينضب ! وهذه الجدة فى المشاعر والعقل والروح لو لازمتنا طويلاً لرأينا بها العجب . ولكن ناموس القوى والضعيف يفعل فعله ، وجاذبية الأجسام الكبرى للصغرى تسرى على الآدميين أيضاً . فما نكاد نولد حتى يتلقفنا الكبار من حولنا ، فلا نبصر الأشياء إلا بأعينهم ، ولا نسميها إلا بما وضعوا لها من أسماء وصفات وسمات . لقد كتب علينا هذا المصير : أن نفقد جِدّتنا ونحن فى المهد ، وأن نلف فى أردية القدم منذ الطفولة ، وأن يفقأ آباؤنا عيوننا الجديدة باللمسة الأولى ، وأن يصمّوا آذاننا بالصيحة الأولى . ومن فرّ منا ببعض البصر وواجه الدنيا بعينيه هو فانبهر ، فهو ذلك الذى نطلق عليه فيما بعد اسم « الشاعر المبتكر » . على أن الخطر رابض أيضاً فى محيط الفن . فهنالك الشخصية القوية كالنواة فى الذرة ، شدت اليها الشخصيات الصغرى ، فأعمت أبصارها ، فلا ترى إلا ما ترى الكبرى ولا تقول إلا ما تقول . فاذا سئلت عن « الربيع » قالت ، لا ما تحس هى وترى ، بل ما سمعت ورأت من خلال أسطر نفس كبيرة مشرقة فى عصرها أو فى عصور الغابرين . إلى أن تتحطم الذرة ، وينفرط عقد النواة ، ويتحرر من تتكشف له نفسه ، فيقول قولاً ندرك من ساعتنا أنه له . فالصوت صوته ، والنبرة نبرته ، والفرحة فرحته ، والدمعة دمعته . فنصيح معجبين : هذا قول مبتكر . وهو ما زاد فى حقيقة الأمر على أن حقق نفسه .

لكن . . ما أصعب تحطيم الذرة فى الفن أيضاً ! وأى دوىّ وانفجار أيضاً لهذا الحدث فى تاريخ الآداب والفنون ! إن بروز الشخصية مفروزة جلية هى

معجزة الفنان . كم من الجهد بذل « بيتهوفن » لينطلق من نواة « موزارت » ! إن آثار هذا الجهد لم تزل باقية فى سانفونيته الأولى . وما أروع كفاح « جوته » فى شبابه مع أقرانه الشعراء فى سبيل التحرر من تأثير « فولتير » والخروج عن نطاق جاذبيته . إنها لمضنية مؤلمة تلك الجهود التى تبذلها النجوم لتضىء فى حضرة الشمس . وإنها لتعيش فى انتظار الساعة التى تصبح فيها شموساً بدورها تجرى من حولها النجوم .

على أن شخصية الفنان لا تتكون إلا من كتلة أعمال . ان العمود الفقرى للشخصية الفنية هو سلسلة آثار ، يستطيع الباحث أن يتتبع فى حلقاتها صفاته وعيوبه ولوازمه وعاداته ، ومزاجه واتجاهاته . لهذا كان على النقد الفنى أن يفرق دائماً بين فنان فى أعماله الأولى يتلمس خطاه نحو شخصيته ، وفنان عُرف له طريق واتجاه . فقضية النقد للأول تتلخص فى : « كيف صنع هذا ؟ » . وقضية النقد للثانى هى : « لماذا صنع هذا ؟ » . الأول لم نعرف له شخصية بعد ، فعلينا أن نعينه على معرفة طريقه إليها ، فنناقشه : كيف أتيح ذلك الأثر ؟ ما موجباته ؟ وما أدواته ؟ وأى خطى يتأثر ؟ وفى أى طريق يسير ؟

أما الثانى وقد عرفنا شخصيته ووجهته ، فواجبنا أن نسأل : « لماذا أخرج للناس هذا الأثر الأخير » ليحقق به أى جانب من جوانب شخصيته التى نعرف عنها الكثير ؟ لماذا صنع هذا ؟ أترى الغرض منه تأكيد فكرة من أفكاره ؟ أو الرجوع عن بعض هذه الأفكار ؟ أو الخضوع لاحساس بعينه يلاحقه فى كل أثر من آثاره ؟ . .

النقد للأول موجّه ، وللثانى مفسر . ينبغى للنقد الفنى أن يوجه الأول إلى شخصيته التى لم تظهر ، وأن يفسر للثانى شخصيته التى ظهرت .

بهذا يؤدى النقد واجبه فى مجال الخلق الفنى .

وانه لمجال مفعم بالعجائب . وقد يدرك المتأمل له أنه تابع لنظام الذرات والكواكب . فأسلوب الخالق الأعظم واحد ! فى صغائر المخلوقات وفى أكابرها وفى طاقتها المادية وفى نشاطها المعنوى .

ان الفنان يظل يبحث عن ذاته وشخصيته ، إلى أن يجدها فيصبح سجينها . إنه يظل يدور حول « نواة » طالباً الانفصال عنها والاستقلال بذاته . فاذا انفصل واستقل دار حول ذاته .

كل فنان ذو طابع هو حبيس طابعه . انقطِعْ شهوراً لدراسة فنان بارز الشخصية . هب نفسك لشيطان أعماله كلها مجتمعة ، فلن يمضى بك الوقت حتى تكون قد عرفته وأحببته وسئمته وألفته فى كل إشاراته ولفتاته وارتفاعه وانحطاطه وقدرته وعجزه . إن تأمل آثار الفنان كاملة تكشف لك عن شخصيته الكاملة ، فتعرف أسلوبه فى التفكير والتعبير ، وطريقته فى تناول الأشياء . ولكنك وقد أحطت به ونفذت إلى لبه لا بد صائح يوماً بلهجة المحبة والألفة : « دائماً هذه الطريقة ! دائماً هذا الأسلوب ! لو يخرج عنها قليلا . ! ! » كيف يخرج عنها ؟ إنها ذاته . تلك مأساة الطابع والشخصية . ما دام له طابع فلن يخلع عنه أبداً . . ولا بالموت .

كل خالق ذو أسلوب سجين أسلوبه . . . حتى الخالق الأعظم .

توفيق الحكيم

فى أفق السياسة العالمية

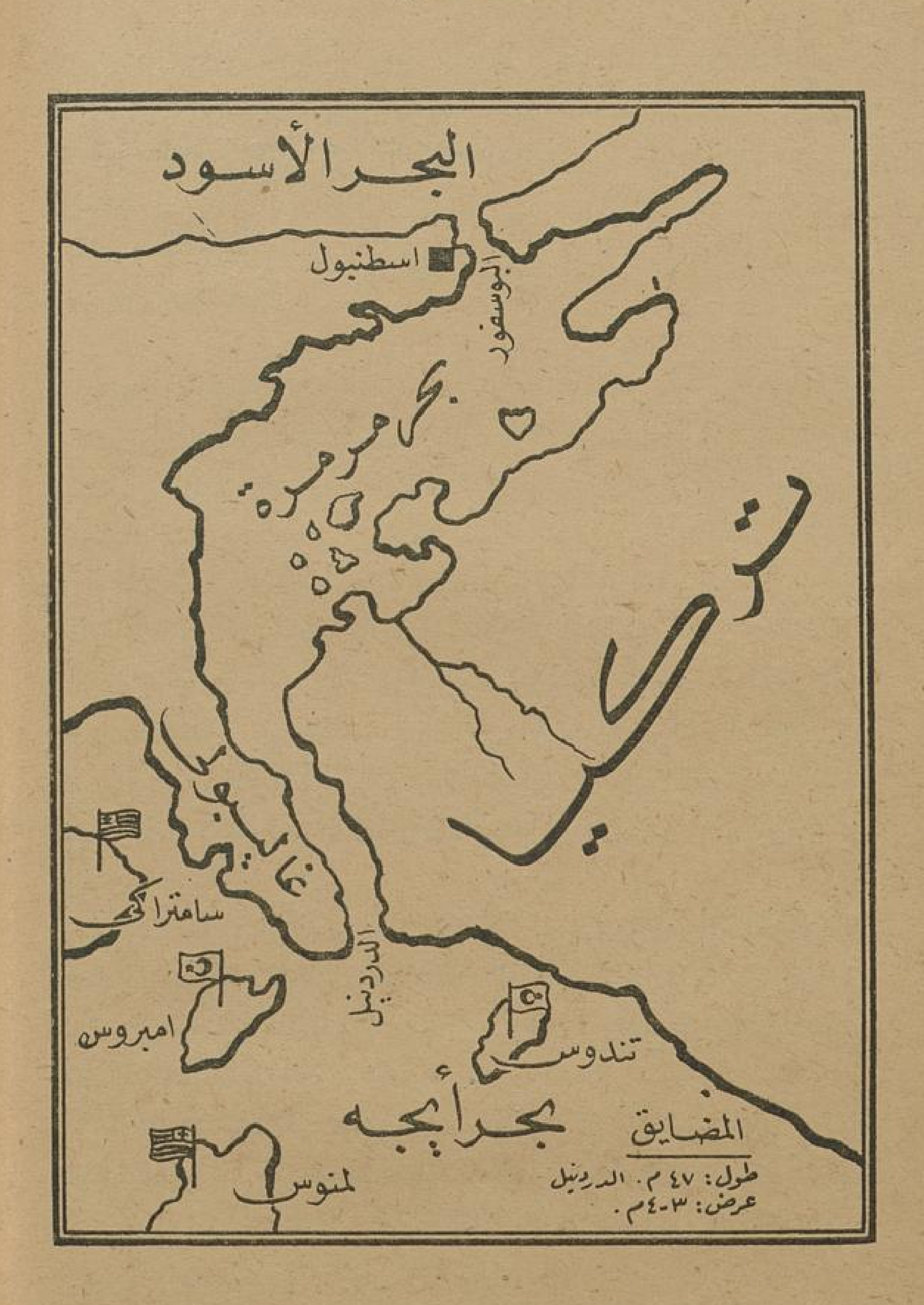
مشكلة المضايق

جزى الله آلهة الإغريق القدماء كل خير، فقد علموا شعوب أوربا كثيراً من دروس الحياة فى حالتى الحرب والسلم، وكان لهم — فيما وعته الأساطير من حسناتهم — فضل السبق فى كشف أهمية مضايق البحر المتوسط وتحصينها وتأمينها، ضد المعتدين على بلادهم من لصوص البحر أو من القبائل والشعوب التى لم تمتّ بسبب إلى مدنيتهم. فأقاموا على جانبى بوغاز « مسّينا » بين جزيرة صقلية « الهيلينية » وأرض إيطاليا المتبربرة إذ ذاك حارسين ماردين، هما « سلاّ » و « شاربدس » قد كمن كل منهما فى كهف قدّ من صخر صلد، ولكل منهما رءوس عدة تتجه كل منها صوب جهة من الجهات الأصلية أو الفرعية، وفى كل رأس منها ضفائر كالحبائل، وعيون كالمنائر، وأذرعة كالخطاطيف، تأخذ كل سفينة منحوسة غصباً، وما تزال دائرة بها وسط « دوامة » البوغاز حتى تغرقها بمن عليها.

وكذلك فعل « دردانوس » ابن الإله الأكبر « زوس » لحماية المضايق التى تفصل أوربا عن آسيا، والتى عرفت باسمه « الدردنيل » إذ أنشأ مدينة « دردانا » تشرف على البواغيز عند أضيق نقطة فى عروضها، وتدفع غارات الأسيويين الذين تحدّثهم أنفسهم بغزو أرض هيلين.

أما مضيق مسينا فلم يلبث أن فقد أهميته على أثر ظهور روما واتساع سلطانها جنوباً حتى شمل جزيرة صقلية، وغرباً حتى وصلت بنودها وأساطيلها إلى « عمد هرقل » (جبل طارق) القائمة بين أفريقية وأوربا، والتى تحرس أبواب الأقيانوس فيما وراء البحر المتوسط.

وأما مضايق الدردنيل فقد استهوت محاسنها ومناعتها قيصراً من قياصرة روما، فشيد على ضفافها حاضرة لدولته، فاقت كل ما صنعته يد الآلهة، حتى بذت



المضايق والجزر الحارسة

روما نفسها ، وأصبحت المضايق — وعلى قرنها الذهبي مدينة قسطنطين العظيمة — مفخرة الدنيا ومعجزة الطبيعة والصناعة معاً في روعتها وبأسها ، وفي موقعها الجغرافي الفذ ، وحصانتها التي تحدث بها العالم الخارجي ، وكانت من أجلها موضع إعجاب الناس ، ومثار حسدهم وحقدهم جميعاً .

ولم يقف أمر جهود البشر من بني الإنسان عند تخطيط المدن وإنشاء الحصون ، فقد تقدم الزمن وجاءت حركة النهضة الحديثة بمخترعاتها واكتشافاتها ففاق الإنسان الآلهة أيضاً ، واخترع الناس البارود وصنعوا المدافع والقنابل والمفرقعات والمدمرات وسخروا كل ذلك وغيره لحماية البواغيز . وكان الأتراك العثمانيون وهم في دفعتهم الحربية الأولى نحو الغرب قد غالبوا الطبيعة بإيمانهم وتغلبوا على ما أقامه أهل بيزنطة أو القسطنطينية من حصون وسدود وسلاسل وأغلال شدوها أو أطلقوها وسط اليم ، لدرء خطر الهجوم ، فلم يغن كل ذلك فتيلا ، وأصبحت القسطنطينية والمضايق منذ سنة ١٤٥٣ في قبضة الأتراك .

***

ولقد ظل أمر « المضايق » من شؤون تركيا وحدها ، بيدها مفاتيحها إن شاءت يسرت لحلفائها المرور فيها ، وإن شاءت أغلقتها في وجه جميع الدول لا تبالي من تعاند . ولم يكن هذا بمستغرب ما دامت تركيا متفوقة في أوربا ، وكانت لها الكلمة العليا على الأقاليم المتاخمة للبواغيز . فلما بدأ ضعف تركيا وظهرت دولة روسيا الفتية الحديثة ، تحدوها مبادئ « بطرس الأكبر » التي ما فتئت توجه سياسة روسيا الخارجية ، وهي تخليص روسيا من عزلتها الجليدية بين بحار مغلقة أو متجمدة أكثر العام ، والأخذ بيدها نحو الغرب والجنوب ، حيث الثروة والصيت والمياه الدافئة في البحر الأسود ومنه إلى البسفور وبحر مرمرة والدردنيل والبحر المتوسط — لما كان ذلك تطورت فكرة المضايق ، واتخذت مظهراً دوليا كان محوره في أول الأمر النزاع بين تركيا وروسيا .

ثم توالت انهزامات تركيا على أيدي روسيا ، في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، وظهرت للعالم نيات روسيا الحقيقية بشأن توزيع تراث « الرجل المريض » في أوربا واعتزامها السطو على القسطنطينية والمضايق كنصيبها من الغنيمة . ووضح للدول وضوحاً لا لبس فيه أن روسيا إنما تعمل للتفوق

العالمى وتهديد مصالح الدول الأخرى وخاصة بريطانيا . عند ذلك اتخذت مشكلة البواغيز صفتها الدولية العالمية ، واتجهت أنظار الدول إلى هذه المنطقة ، فجعلت تعمل مع تركيا الضعيفة على صيانتها وتأمينها ، لا بالوسائل التى كانت سائغة عند آلهة الإغريق القدماء ، ولا بمستحدثات الدفاع التى اخترعها العقل البشرى وأنتجتها البحوث العلمية والمهارة الصناعية الحديثة ، ولكن بالاتفاقات والمعاهدات الدولية ، لعل ذلك أن يوقظ ضمير الدول السياسى ويجعل منه سنداً يحتمى به الضعيف وقوة يرهبها القوى !

وعلى ذلك جاءت سلسلة الاتفاقات الدولية التى أبرمت فى أثناء القرنين التاسع عشر والعشرين بشأن المضايق ، وقد كان آخرها فى منترو سنة ١٩٣٦

١ — أما أولها فكان فى سنة ١٨٤١ وقد أبرم فى لندن عقب الأزمة الدولية التى أثارتها فتوح محمد على الكبير وتهديده القسطنطينية ؛ فقد خشيت الدول إذ ذاك أن تتقدم أساطيل روسيا فتخترق البواغيز لمساعدة السلطان ، ثم تتخذ من هذه المساعدة مركزاً تمتاز به لدى الباب العالى على سائر الدول . وقد نص اتفاق لندن على القاعدة التقليدية المرعية منذ القدم وهى أن يتعهد السلطان بأن يغلق المضايق أمام السفن الحربية أياً كانت جنسيتها ، فى الحرب وفى السلم جميعاً .

٢ — وفى سنة ١٨٥٦ اجتمعت الدول فى باريس لعقد معاهدة الصلح مع روسيا ، على أثر انهزامها فى حرب « القرم » أمام تركيا وحلفائها ، فانتهز الحلفاء هذه الفرصة للقضاء على مطامع روسيا فى البحر الأسود والمضايق ، فلم يمسوا القاعدة القديمة الخاصة بالمضايق وزادوا عليها أنهم قرروا حيدة البحر الأسود . ومعنى ذلك إزالة القواعد البحرية ومنع تحصين الثغور وحظر إقامة الأساطيل الحربية فى مياهه . وكان هذا أكبر إذلال منيت به روسيا فى القرن التاسع عشر . وظلت روسيا ترسف فى هذا القيد حتى سنحت لها الفرصة للتخلص منه عقب الحرب الفرنسية البروسية ، فكان لها ما أرادت ، ثمناً لوقوفها على الحياد فى أثناء الحرب .

٣ — ثم حدث تطور خطير قبيل قيام الحرب العظمى ، فقد ضؤل شأن روسيا حربيًّا بسبب هزيمتها النكراء أمام اليابان برًّا وبحراً فى سنة ١٩٠٥ ، ولم تعد روسيا تلك الدولة التى تخشاها انجلترا ، فقربت بينهما فرنسا وتعاقدت الدولتان فى سنة ١٩٠٧ ، وأصبحت ألمانيا لا الروسيا مصدر الخطر وموضع السخط

والكراهية والخوف من الجميع . فلما قامت الحرب العالمية الأولى كانت روسيا إلى جانب الحلفاء ، بينما انحازت تركيا إلى جانب ألمانيا فتعرضت المضايق من جراء ذلك لأقسى تجربة فى تاريخها الحديث . فقد كان من صالح الحلفاء أن يستبقوا الروس إلى جانبهم يقاتلون الألمان فى جبهة الحرب الشرقية ، وكان الحافز الوحيد الكفيل بإثارة حماستهم للحرب أن يعدهم الحلفاء بتحقيق أمانيهم فى القسطنطينية والمضايق بعد كسبها . وفعلا عقد اتفاق سرى فى لندن سنة ١٩١٥ بين بريطانيا وفرنسا وروسيا نص فيه على أن تكون القسطنطينية والمضايق بعد الحرب من نصيب روسيا ، بشرط أن يكون لإنجلترا الجزيرتان اللتان تتحكمان فى مدخل الدردنيل جزيرة « تندوس » من جهة الشرق و « أمبروس » من الغرب . ومع أن هذا الاتفاق السرى لم يتحقق لنشوب الثورة البلشفية فى روسيا وخروجها من الحرب قبل نهايتها ، فان شروط الاتفاق وفداحة الثمن الذى قدمته بريطانيا تنبئ عن حالة اليأس الشديد الذى استولى على السياسة الإنجليزية فى ذلك الوقت .

وكانت تركيا حين دخلت الحرب إلى جانب ألمانيا قد هاجمت روسيا فى القوقاز ، فتعذر على روسيا المتهالكة المتضعضعة فى ذلك الوقت أن تباشر بنجاح حربين فى ميدانين عظيمين بعيدى الشقة ، فطلبت إلى الحلفاء تخفيف الضغط عنها بحملة ترسلها انجلترا ضد المضايق ، فقامت حملة « غاليبولى » الشهيرة فى مارس سنة ١٩١٥ ، واضطرت انجلترا إلى سحبها بخسائر جمة بعد تسعة أشهر ، لم تقو فى أثنائها على إدراك شىء من غرضها الحربى الذى قصدت إليه ، وهو اختراق المضايق وفتح الطريق إلى البحر الأسود .

ثم انتهت الحرب فى خريف سنة ١٩١٨ وكانت روسيا صاحبة المطامع والدعاوى العريضة فى المضايق والبلقان عامة قد تركت الميدان فى غمرة من ثورتها زاهدة فى كل ما كسبته من مزايا إقليمية بمقتضى معاهدة سنة ١٩١٥ ، وعلى ذلك قرر الحلفاء أن تشرف على المضايق والقسطنطينية لجنة دولية ، تمثل الحلفاء الذين احتلوا القسطنطينية وأملوا على حكومة تركيا المتهدمة شروط معاهدة « سيفر » سنة ١٩٢٠ ، وهى المعاهدة التى لم يقدر لها التنفيذ ، إذ ما لبث مصطفى كمال أن أعلن ثورته المشهورة ، وقاد الأمة التركية من نصر فى ميادين الحرب ، إلى نصر سلمى جديد كان له أثره فى نظم الحكم والاجتماع ، واضطر

الحلفاء أن يعقدوا معه صلحاً شريفاً فى لوزان سنة ١٩٢٣ . وفى هذا المؤتمر لم يمل الحلفاء شروطهم على تركيا كما اعتادوا أن يفعلوا من قديم ، أو كما أملوها على ألمانيا والنمسا من قبل ، ولـكن عصمت باشا ممثل تركيا الجديدة أخذ مكانه فى المؤتمر على قدم المساواة مع لورد « كرزون » ممثل انجلترا الأرستقراطى العظيم ، وجعل يعرض مطالب تركيا غير هياب ولا وجل ، ويرد على اللورد حجة بحجة .

ولما جاء دور البحث فى مشكلة المضايق لم ير الحلفاء بدًّا من قبول « شيشرين » وزير خارجية السوفيت الجديدة ، رغم أنه لم يكن يربطها بدول الحلفاء أية صلة سياسية كانت أو اقتصادية . ومن عجب فى هذا المؤتمر أن يكون ممثل روسيا عدوة تركيا القديمة أقوى نصير لتركيا الجديدة وأول محام عن قضيتها ضد الحلفاء وضد بريطانيا بصفة خاصة . ذلك لأن بريطانيا التى ظلت قرناً من الزمان أو أكثر تعلن عن صداقتها لتركيا ، وتنادى بضرورة التمسك بحق السلطان فى أن يغلق المضايق أمام جميع السفن الحربية ، منعاً للروسيا من التسلل بأساطيلها داخل البحر الأبيض المتوسط ، قد جاءت إلى مؤتمر لوزان تنشر مذهباً جديداً يناقض مذهبها القديم فى كلياته وتفصيلاته . لقد جاءت إلى المؤتمر تبشر بالمبادئ الجديدة التى تدعو إلى الإيمان بحرية البحار وحرية الملاحة للجميع ، وعلى ذلك وجب على تركيا أن تترك المضايق حرة فلا يكون لها فيها قواعد بحرية أو جوية ، ولا يكون على ضفافها حصون أو قلاع أو حاميات أو طائرات ، ولا ترسو بمائها سفن مسلحة أو ألغام تعوق الملاحة فى السلم أو فى الحرب .

وهنا تساءلت تركيا وروسيا لفائدة من هذه المبادئ الجديدة ؟ يقينا أنها لم تكن لفائدة تركيا فإن حيدة المضايق تحرم عليها تسليحها وتعرضها لهجوم الأعداء فى أى وقت . وظاهر أنها لم تكن لفائدة روسيا فان هذه الحيدة تيسر لبريطانيا وحلفائها اختراق المضايق بأساطيلها الحربية وتهديد روسيا فى عقر دارها بالقرم . وقد بانت أغراض الحلفاء من الرضا عن هذه الحيدة بالنجدات البحرية التى أرسلتها بريطانيا بطريق المضايق لمساعدة الثائرين فى روسيا البيضاء ضد السوفيت !

وأخيراً لم يسع تركيا إزاء ما كسبته فى لوزان من استرداد أدرنه وتراقيا وغاليبولى إلى مزايا إقليمية أخرى — لم يسعها أن تسترسل فى معارضة سياسة

انجلترا بشأن المضايق ، فوافقتها على رغم احتجاج روسيا وإصرارها على توكيد السياسة التقليدية التى تجعل شأن البواغيز بيد تركيا تغلقها أمام جميع السفن الحربية لكافة الدول على السواء .

وعلى ذلك نصت معاهدة لوزان على حرية الملاحة فى المضايق للجميع . وضماناً لذلك قررت الدول حيدة شبه جزيرة غاليبولى وجزيرتى تندوس وأمبروس التابعتين لتركيا وجزيرتى لمنوس وسامتراكى التابعتين لليونان ومعظم جزر بحر مرمرة وضفتى البسفور إلى بعد عشرة أميال فى الداخل . ولم يبخس الحلفاء حق تركيا كلية فى تأمين نفسها ، فرخصوا لها بتحصين القسطنطينية وجعلها قاعدة بحرية وإبقاء حامية حربية بها قوتها ١٢٫٠٠٠ جندى ، وكونوا لجنة دولية برياسة تركيا لمراقبة تنفيذ هذه الشروط . وقد بقيت هذه الحال قائمة أكثر من ١٢ عاماً استطاعت تركيا فى أثنائها أن تفرغ لتنفيذ برنامج الإصلاح الكمالى الذى خلق من تركيا دولة فتية موطدة الأركان ، ومن الأتراك شعباً ناهضاً سرعان ما انعقدت له الزعامة فى البلقان وفى الشرق الأوسط .

٤ — وفى سنة ١٩٣٥ — ١٩٣٦ اكفهر جو السياسة الدولية فى أوربا بل فى العالم كله ، فقد هاجمت إيطاليا إتيوبيا وجردت عليها جيوشها وطائراتها وأساطيلها وغازاتها السامة متحدية فى ذلك بريطانيا ومن ورائها عصبة الأمم . ولما لم يفد توقيع العقوبات الاقتصادية ضدها ، ووضح للناس خيبة أملهم فى العصبة وفى مبدأ التأمين الجمعى ، وظهر أن ميثاق العصبة وحده لا يستطيع أن يدفع شراً أو يمنع عدواناً — انتهزت تركيا عند ذلك هذه الفرصة السيكولوجية وأبدت رغبتها فى ضرورة تعديل معاهدة لوزان بشأن المضايق ، حتى لا يتعرض أمنها وسلامتها لعبث دولة مهاجمة كإيطاليا . وكان من صالح انجلترا بعد أزمة الحبشة أن يكون لها حلفاء فى البحر المتوسط كتركيا وأن يكون هؤلاء الحلفاء مسلحين وبمأمن من هجمات العدو .

وكذلك انحازت روسيا إلى تركيا إذ لم يكن فى مصلحتها أن تبقى البواغيز مفتوحة لأساطيل الدول تهدد ثغورها وقواعدها فى البحر الأسود . وكانت المحالفة بين روسيا وتركيا قد ساعدت على تصفية الجو بينهما ونزع الضغائن من الصدور ، فلم يعد يضايق روسيا أن تتسلح صديقتها تركيا وتمتشق حسامها ذياداً عن البواغيز . ولم تشأ تركيا أن تتشبه بألمانيا أو إيطاليا فتعمد إلى القوة وخرق

المعاهدات بل آثرت أن تدعو الدول إلى مؤتمر سريع يجيب تركيا إلى رغباتها . وانعقد المؤتمر فى « منترو » فى يوليه سنة ١٩٣٦ وقرر إلغاء القيود الدولية التى وضعت فى مؤتمر لوزان بشأن الرقابة على المضايق ، ونص على حق تركيا فى تسليحها وتحصينها كما تريد ، وقرر بشأن الملاحة ما يأتى :

(ا) فى وقت السلم : تكون الملاحة التجارية حرة للجميع ، ويسمح بمرور السفن الحربية ، عدا الغواصات وحاملات الطائرات والبوارج التى تزيد حمولتها على ١٠٠٠٠٠ر١٠٠ طن .

(ب) وفى وقت الحرب : إذا كانت تركيا محايدة فيحظر على سفن الدول المحاربة المرور ، إلا إذا كان المرور بقرار من عصبة الأمم أو لمعاونة حليفة لتركيا سبق أن ارتبطتا بواسطة محالفة أعلنت وسجلت فى عصبة الأمم .

(ج) أما إذا كانت تركيا دولة محاربة فيحظر مرور السفن التابعة للعدو ، أو السفن المحايدة التى تحمل رجالا أو ذخيرة للعدو ، ويبقى حق التصريح بالمرور فى المضايق بيد تركيا تستعمله كما تشاء ، حتى لو لم تكن هناك حرب .

وعلى ذلك عاد حق السيادة فى المضايق كاملا لتركيا ، ولأول مرة فى تاريخ المضايق اتفقت كلمة بريطانيا وروسيا وتركيا على مصلحة واحدة ، وأصبح مفتاح البواغيز بيد حارس الباب وصاحب البيت .

* * *

والآن بعد أن وضعت الحرب أوزارها وقارب مجلس وزراء الخارجية للدول الحليفة الكبرى أن يجتمع فى لندن ، للبت فى المسائل المعلقة التى ستتألف منها معاهدة الصلح النهائية ، فإن مشكلة المضايق ستطرح من جديد على بساط البحث وستكون مثار خلاف شديد بين الدول ؛ فان روسيا بعد أن دعمت ثورتها فى الداخل ووطدت مكانتها فى أوربا وفى العالم كله بفضل ما اضطلعت به من بطولة فى مقاومة هتلر ، ثم فى مطاردة فلول جيوشه إلى أسوار برلين ، ستعمل جاهدة على تبوء مكانها المرموق على مسرح السياسة الدولية . ولن تكتفى هذه المرة بأن تلعب دور المتفرج فى حلبة المشكلات الدولية الكبرى ، فترضى بأن تمسك تركيا بمفتاح الدردنيل بعد أن نهضت روسيا حربيا وبحريا وجويا ، ولم تعد تخشى مهاجمة الدول ، بل على العكس يهمها الآن أن تفتح أبواب المضايق ، وأن تكون

حرة ليتسنى لها الاتصال بالعالم الخارجى متى وكيفما شاءت . ولن تنسى روسيا المرارة التى ذاقتها فى بدء هذه الحرب الأخيرة عندما كانت تحارب إلى جانب الألمان وطالبت تركيا بأن تغلق المضايق فى وجه بريطانيا وفرنسا فلم تستجب لها تركيا . ولن تنسى روسيا كذلك أن تركيا الجديدة قد كتّلت دول البلقان قبل الحرب الأخيرة ، وكادت تخلق من شعوب البلقان اتحاداً سلافيًّا يناهض نفوذ روسيا ويقف حجر عثرة فى طريق تقدمها .

لذلك لم يكن مستغرباً أن تنذر روسيا تركيا فى مارس سنة ١٩٤٥ برغبتها فى إعادة النظر فى معاهدة منترو ، وأن تتوتر العلاقات بين الدولتين بدرجة استرعت اهتمام الدول وبحث الموضوع فى مؤتمر « بتسدام » . ويلوح لنا من تصريحات الرئيس « ترومان » والوزير الإنجليزى « بيفن » أن الاتجاه الجديد فى حل مشكلة المضايق وما يماثلها سيكون دوليًّا . ودليلنا على ذلك إصرار روسيا على أن تمثل فى المؤتمر الذى سيبحث نظام الحكم فى ميناء طنجة ، على رغم أن روسيا لم تكن قبل هذه الحرب من الدول المشتركة فى هذا النظام ، وعلى رغم أن أسبانيا كانت قد انفردت فى أثناء الحرب بالحكم فى طنجة . فكما أن طنجة التى تقابل جبل طارق على الساحل الأفريقى ستعود دولية ، كذلك تريد روسيا أن تصبح المضايق فى الطرف الآخر من البحر المتوسط دولية أيضاً مثل قناة السويس . وقد أكد الرئيس ترومان هذا الاتجاه الجديد فى إحدى خطبه الأخيرة إذ قال « إن من الأسباب الملحة فى إثارة الحروب فى أوربا طوال القرنين الماضيين ، رغبة بعض الدول فى الانفراد برقابة منافذ الماء فى أوربا ، وأقصد بذلك نهر الدانوب والبحر الأسود والمضايق وجميع المنافذ التى تمس سواحلها دولتين أو أكثر » . أما الوزير الإنجليزى فلم يعلن عن رأيه بعد ، ولكنه أجمل الكلام فى خطبته الأولى وقال : « إن منطقة البحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط من المناطق المهمة التى تؤثر فى الإمبراطورية البريطانية كما أنها تؤثر فى سلام العالم كله » .

يبقى موقف تركيا إزاء حيدة المضايق وتجريد هذه المنطقة من سلاحها . فإن حق تركيا الطبيعى فى الدفاع عن أمنها وسلامتها يحتمان عليها التمسك بسيادتها على المضايق كما تقرر فى مؤتمر « منترو » بموافقة روسيا نفسها . فإذا استطاع الحلفاء أن يؤمنوها ضد عدوان الغير عليها ووجدت تركيا فى ميثاق الأمم

المتحدة الجديد سنداً وملاذاً يحميها ضد العدوان ، فقد تقبل تركيا أن تعود المضايق إلى نظام شبيه بنظام معاهدة « لوزان » فتعان حرية البواغيز وحيدتها بشرط السماح لتركيا بتأمين نفسها، وذلك بتحصين النقط الاستراتيجية التى تضمن لها الاطمئنان على سلامتها . ويهم الحكومات الديمقراطية أن تبقى تركيا قوية قادرة على درء الأخطار التى قد تصيب منطقة البحر المتوسط من ناحية الشمال . ولا محل البتة لتصديق الإشاعة القائلة بايجاد قاعدة روسية داخل منطقة المضايق ؛ إذ لا يعقل أن تقبل تركيا أو الحلفاء شيئاً من ذلك . ولا ننسى أن أهمية النقط أو القواعد الاستراتيجية قد تضاءلت أو كادت بسبب اختراع القنبلة الذرية وما يتوقع لها من مستقبل كفيل بترويع الناس والحكومات ، وردعهم عن عبادة إله الحرب ، والتقرب له بمختلف الأسلحة . وإنا لنتفاءل خيراً بقول الرئيس ترومان « . . . عندما يجتمع مجلس وزراء الخارجية فى لندن . . . يجب أن نسائل أنفسنا فى كل ما نفعل عما إذا كان هذا الاتجاه أو ذلك يخدم السلم فى المستقبل ، أو أن من شأنه أن يبذر بذور حرب أخرى فى المستقبل . »

محمد رفعت

الحرب والجامعات فى بريطانيا

غيّرت هذه الحرب المنتهية كثيراً من القيم والأوضاع فى حياة الغرب . وليس أثرها فى الحياة العقلية والفكرية هناك أقل ظهوراً من أثرها فى الحياة العملية، وفى معالم الحضارة المادية . والذى يدرس تطور المدنية فى أوربا الحديثة لا يملك إلا أن يلمس ارتباط الحياة العامة وتنظيم المجتمع بالحياة العقلية واتجاهات الفكر والثقافة ؛ ذلك أن الناس هناك ، لاسيما فى بلد كبريطانيا العظمى ، يملكون من أقدارهم ما يؤهلهم لأن يفكروا — أو يفكر لهم فريق منهم على الأقل — فى مستقبل حياتهم وفى الأسس المادية والقواعد العملية التى ينبغى أن يقوم عليها تنظيم مجتمعهم ، بعد أن هزته هذه الحرب هزتها العنيفة ، فكشفت عن نواح كثيرة من القوة ينبغى أن تدعم ، وعن نواح غير قليلة من الضعف ينبغى أن تعالج ، ونواح قليلة أو كثيرة من النقص ينبغى أن تستكمل .

ولعل من أظهر ما يمتاز به المجتمع فى الغرب ، وفى بريطانيا التى نحن بصددها الآن ، حيويته وحساسيته . فهو يشعر — أو يشعر مفكروه على الأقل — بالحاجة إلى الإصلاح ، متى لاحت بوادر تلك الحاجة فى الأفق البعيد ؛ وهو يبدأ سعيه إلى الإصلاح قبل أن تلح الحاجة إليه ، وقبل أن يصبح ضرورة لامفر منها . وقد لا نخرج كثيراً عن الحق إذا نحن قسنا حيوية الشعوب والأمم فى الجيل الذى نحن مقبلون عليه بمقدار حساسية كل منها فى الشعور بالحاجة إلى الإصلاح ، والسعى إليه سعياً موجهاً يقوم على أساس من التفكير ورسم الخطط ، بدلا من الإصلاح المرتجل الذى لا يسبقه فكر ، ولا ينتزع بالناس إلى اقتناع .

وكثيراً ما جنبت مثل هذه الحساسية المجتمع البريطانى فى تاريخه الحديث والمعاصر أخطار الانقلابات الخاطفة وويلات الثورات العنيفة . فكان قادة

الفكر فيه يستشعرون الحاجة إلى التحول ، فيغيرون من أفكارهم ويحولون من اتجاهاتهم ، فى ضوء الخبرة والتجربة ، سواء منها ما يقع فى بلادهم وتحت حسهم ، وما يقع فى غير بلادهم ، ولكن فى ظروف قد يتحقق ما يشبهها من قريب أو بعيد فى بلادهم إن تركت الأمور دون توجيه . والغريب — أو لعله ليس غريباً — أن بريطانيا حاولت جهد طاقتها أن تتعلم من هذه الحرب المنتهية أكثر مما تعلم غيرها ، وأن تفيد من هذه التجارب الخطرة التى مرت بها ، أو مر بها غيرها من الأمم ، إفادة قد لا تبدو آثارها عاجلة ، لأنها لا تسلك سبيل الثورة ، ولكن الزمن كفيل بأن يتكشف عنها فى جلاء ، لأنها تتناول نظم المجتمع فى الصميم .

والذى يعنينا الآن من حركة التطور هذه أن نحاول أن نتبين مكان الجامعات من التحول الجديد ، ومبلغ مساهمتها فى إرهاف حساسية المجتمع لظروف البيئة والزمن وأطوارها المتجددة ؛ بل مكانها من توجيه الفكر والحياة العقلية والثقافية قبل أن تستقر على اتجاه معين ، ثم ربط الحياة العملية العامة بالحياة العامية والفكرية للجيل الجديد .

وليس يعنينا فى هذا المقام كثيراً أن نعدد ما ساهمت به جامعات بريطانيا فى الحرب . إذ الحرب هناك كانت كاملة شاملة ، ساهمت فيها الجامعات كما ساهم غيرها من مؤسسات الأمة ومصالح الدولة ؛ فاشترك كثير من رجال الجامعات وشبابها فى الحرب والقتال اشتراكاً فعلياً ؛ وهبط عدد الطلاب المنقطعين للعلم والدراسة هبوطاً محسوساً ، فأصبح مقصوراً على من لم يبلغوا سن التجنيد من الطلاب والطالبات ، أو على المتفوقين تفوقاً خارقاً ، والذين يدرسون دراسات خاصة ، تجعل من الخير للأمة استمرارهم فيها ، لعلهم يساهمون يوماً ما فى تقدم العلم والمعرفة تقدماً يذكى من إنتاج الأمة وقدرتها على الحرب والكفاح ؛ أو على فئة قليلة من غير الصالحين للجندية والخدمة العسكرية فى أشكالها المختلفة ؛ ثم على نفر متناقص العدد من الأجانب وأبناء الأمم المحايدة وغير المحاربة ممن يدرسون فى بريطانيا . كذلك ساهم علماء الجامعات والقائمون بالأبحاث فيها مساهمة فعالة فى جهود بريطانيا ، فى الإنتاج الحربى ؛ فتوثقت الصلة بين معامل البحث ودور الصناعة ؛ وضاعف الباحثون والمخترعون جهودهم لتسخير العلم فى خدمة أداة الحرب فى صور وأشكال تعدو الحصر . ولولا ذلك

ما استطاعت بريطانيا مواصلة الحرب فى الدفاع أولا ، ثم فى الهجوم خلال سنوات الحرب الطويلة ، وعلى تلك الصورة التى انتهت بها وبحلفائها إلى النصر .

كذلك توثقت الصلة بين معامل البحث وحقول الزراعة ؛ فأصبحت بريطانيا بعد انقضاء خمس سنوات على الحرب تنتج ثلثى ما تحتاج إليه من الأغذية ، بعد أن كانت قبل الحرب لا تنتج غير الثلث . وفى هذا تقدم لا يكاد يصدق ، خصوصاً إذا راعينا أن بريطانيا منذ ثورتها الصناعية لم تكن بلداً زراعيا بالمعنى المعروف ، وأن التقدم فى الإنتاج الزراعى بطىء بطبيعته ، ومع ذلك فقد استطاع العلماء البريطانيون أن يقودوا الزراع وأن يرشدوهم فى مسائل الاستنبات وانتقاء البذور وتنويع المحاصيل وإصلاح الأراضى وتجديد الآلات ومكافحة الآفات وغير ذلك مما كان له أثره الرائع فى إنقاذ البلاد من غائلة الجوع ، بعد أن كادت حرب الغواصات أن تحول بين أهلها وبين أن يطعموا من الخارج شيئاً .

قد ساهمت الجامعات البريطانية والعلماء البريطانيون إذن مساهمة فعّالة فى جهود بريطانيا العسكرية والحربية العامة ؛ وكان لتلك المساهمة الحيوية أكبر الأثر فى كسب الحرب . ولكن المهم أن الحرب لم تشغل الجامعات ورجالها عن التفكير فى السلم ؛ أو على الأقل فيما بعد الحرب من سنين قد تكون سلاماً ، وقد تكون انتقالا إلى حرب من جديد . وإنما انتهز رجال الجامعات فرصة الحرب ليدرسوا ما كشفت عنه من أوجه العيب أو النقص فى مجتمع ترى الجامعات بحق أن عليها جانباً كبيراً من قيادته ورسم خططه للمستقبل ، فى عصر كاد العلم أن يتزعم فيه كل مرفق من مرافق الحياة ؛ فأصبح التفكير والتبصير ورسم الخطط والتوجيه لزاماً على من أراد أن يعيش من الشعوب ؛ وأصبح واجبا على الجامعات إن هى أرادت أن تؤدى رسالتها للمجتمع فى السلم كما أدتها فى الحرب أن تتخذ عدتها وأن تعدل سياستها وتجدد من أداتها الخاصة ومن طرائقها فى البحث والتعليم والتربية وإعداد قادة الأمة فى المستقبل .

لذلك أخذ الجامعيون البريطانيون يفكرون فى المستقبل رغم ما أخذتهم به الحرب من شدة وقسوة . وكان تفكيرهم فى المستقبل جديا وشاملا فى الوقت ذاته ؛ ففتح المجال أمام التفكير الحر فى شئون الجامعة ووظيفتها فى المجتمع ، وكثر النقد واتسعت دائرته حتى شملت الجامعة بمعناها الأوسع ، فشارك فيه رجالها وأبناؤها وخريجوها فى مختلف مناحى الحياة ، بل شارك فيه رجال الأعمال

والحياة العملية فى السياسة والصناعة والتجارة وما إليها . ومع أن الحكومة شاءت أن تحفظ للجامعة قداستها وحريتها فلم تشترك فى اللجان العديدة التى تألفت لهذا الغرض ، ولم تحاول التدخل فى شئون التعليم الجامعى وتنظيمه ، فقد كان مفهوماً أن الحكومة تشجع الفكر الحر فيما يتصل باصلاح شئون الجامعات ؛ كما أن السلطة التشريعية ، وإحدى لجان مجلس العموم بنوع خاص ، أثارت غير قليل من النقاش حول هذا الموضوع . بل إن الغريب أن الجامعات فى بريطانيا كانت أسبق مؤسسات الأمة إلى أن تتعلم درساً جديداً من هذه الحرب ؛ فدعت الأساتذة الأجانب الذين لجأوا إليها من بلاد أوربا قبيل الحرب وخلالها ، وكانت كثرتهم من قادة الفكر الحر فى القارة الأوربية ، إلى المساهمة فى المناقشات الدائرة حول رسالة الجامعة فى المجتمع والجيل البريطانى الجديد . وأخذت الجامعات بكثير من آراء هؤلاء الأساتذة الأجانب فى رسم خططها للمستقبل . وقد تزعمت الجامعات البريطانية الأمة فى هذا الصدد بالتحرر من بعض قيود الماضى ، والخروج على العزلة المعروفة عن الخلق البريطانى .

وترتب على هذا كله أن خرجت الجامعات البريطانية من الحرب ببرنامج جديد يساير الزمن ، بل يسبق الحاضر إلى ماينبغى أن يقوم عليه المستقبل . وهذا البرنامج الجديد قد رسمت منه خطوطه الأساسية ومعالمه الكبرى ، كما رسمت منه بعض تفصيلاته ؛ ولكنه مع ذلك برنامج مرن قابل للتطور والتغير ، شأن كل برنامج يقوم على أساس من الفكر الحر والتفكير السليم . وهو فوق ذلك برنامج غير رسمى ، وضعه رجال العلم لتهتدى به جامعاتهم دون أن تلتزم باتباع حرفيته ، أو بالتقيد فى حدوده ؛ وذلك أيضاً شأن كل برنامج جامعى صحيح ، يحفظ للجامعة روحها وتقاليدها وتراثها فى أن تحيا حرة طليقة ، وفى أن تحفظ لكل جيل وكل زمان حقه فى أن يفكر بنفسه لنفسه .

ورسالة الجامعة كما يحددها الجامعيون تشمل مسائل أربع ؛ عرض لها البرنامج الجديد ، أو هو بعبارة أصح قد أعاد استعراضها فحددها فى ضوء ما استجد من ظروف ، وما يجب أن تضطلع به الجامعة من مهام ومسئوليات . فالجامعة ينبغى أولاً وقبل كل شىء أن تحتفظ بمكانتها كمركز للثقافة القومية العليا ، تلتقى فيه الأفكار فيحتك بعضها ببعض وتتفاعل فى ظروف مستمدة من الحياة البريطانية ذاتها ، حتى تتخذ فى النهاية طابعاً يميز الفكر البريطانى عن غيره

والثقافة البريطانية عن غيرها ؛ اذ أن الجامعة إذا لم ترتبط بالبيئة المحيطة بها لم يعد لها وجود مميز ، وإذا لم ترتبط بحياة المجتمع وتحس حاجاته العقلية والثقافية لم تستطع أن تستجيب لتلك الحاجات استجابة تعين المجتمع على أن يؤمن بقيمتها ، فيستجيب هو من ناحيته ويتأثر بما تغذيه الجامعة من نتاج العقل وثمار الفكر .

ويحرص الجامعيون الآن فى بريطانيا حرصاً شديداً على أن يؤكدوا للناس من جديد أن الجامعة بعيدة كل البعد عن أن تكون مجرد « معهد عال » يمثل « المرحلة العليا » من نظام التعليم العام ؛ فهى أكبر من ذلك ، وأعم من ذلك وأعمق من ذلك ؛ إذ هى تتصل بحياة الشعب وثقافته كلها داخل نطاق التعليم وخارجه . وقد اعترفت الدولة لها بذلك ؛ فعند ما وضعت وزارة المعارف البريطانية مشروع قانون التعليم الجديد وأقره البرلمان هناك لم يتعرض ذلك القانون بكثير أو قليل للجامعة والتعليم الجامعى .

والجامعة إلى جانب ذلك تعنى بناحية ثانية ؛ فهى القوامة على الأبحاث والدراسات التى تساهم بها الأمة فى تقدم العلم وازدياد المعرفة الإنسانية . وهذه الأبحاث ينبغى أن تشمل نواحى المعرفة جميعاً ، سواء فى ذلك علوم العقل والثقافة الخالصة ، وعلوم المادة واستغلالها العملى فى قضاء مصالح المدنية . وبدون هذه الأبحاث لا يكتمل للجامعة كيانها ولا تعتبر جامعة بالمعنى الكامل الصحيح . بل إن من رأى القائمين على شئون الجامعات فى بريطانيا الآن أن من الواجب أن تهيأ الظروف بعد الحرب لينفق رجل الجامعة نصف وقته على الأقل فى إجراء الأبحاث العلمية الخالصة ؛ كما أن من رأيهم أن ترفع الدولة إعاناتها للجامعات إلى خمسة أمثال ما كانت تدفعه قبل الحرب ؛ وذلك حتى تتيسر ظروف البحث ووسائله من إقامة المعامل ودور التجارب وحقولها وغير ذلك ؛ وإن كان من رأيهم فى الوقت نفسه أن تحتفظ الجامعات باستقلالها التقليدى فى البحث ، فلا تكون مسخرة من الدولة لإجراء أبحاث معينة بالذات أو تقديم بحث على بحث كما كانت الحال أثناء الحرب ، وإنما يجب أن تتحرر الجامعة من كل قيد ، وألا يسيطر على رجالها أى مسيطر خارجى فيما ينزعون إليه من أبحاث بصرف النظر عن قيمتها بالنسبة للأمة أو الدولة . وحجتهم فى ذلك قوية ظاهرة ؛ فالجامعة فى كل دولة من الدول إن حصرت أبحاثها فيما تكلفها به الدولة لقاء ما تدفعه من إعانة جرّت على أبحاثها رقابة قومية ضيقة تقضى على ما يجب أن

يتوافر للعلم والبحث من حرية ، وضُرِب على نتائج تلك الأبحاث أو جانب منها نطاق من السرية التى تقتضيها الأنانية القومية ؛ ولا بد أن يؤدى ذلك إلى تضييق نطاق التبادل الفكرى والعلمى بين الأمم ، مما ينتهى حتماً إلى تأخر العلم والبحث العلمى فى تلك البلاد جميعاً ؛ وفى هذا ما يقتل روح العلم ويطفئ نوره ويرجع بالإنسانية إلى وراء . . . وسنرى فى السنوات القابلة ما ينتهى إليه الصراع بين الروح العلمى الجامعى من جهة والنزعات القومية الظاهرة والخفية من جهة أخرى .

وأما الناحية الثالثة التى تعنى بها الجامعة فى أداء رسالتها فأن تكون أداة لإذاعة المعارف ونشرها عن طريق التعليم . ومع أن هذه كثيراً ما تكون الناحية الظاهرة من نشاط الجامعة ، فإن فريقاً من الجامعيين المستمسكين بجامعيتهم يضعونها فى المرتبة الثالثة بين أغراض الجامعة ؛ وإن كانت كثرتهم لا تستطيع أن تتصور وجود الجامعة إذا لم يقترن فيها البحث العلمى وتقدم المعرفة بالتعليم ونشر تلك المعرفة ، لا سيما بين شباب الأمة ؛ فكلا الغرضين مرتبط بالآخر ومتداخل فيه . والجامعة لا تكون جامعة إلا إذا كانت مقراً للثقافة القومية العليا ، ومركزاً للبحث العلمى الخالص ، وداراً للعلم والتعليم وتخريج العلماء الناشئين والمواطنين الصالحين فى مختلف مناحى الحياة . وقد تنبهت الجامعات إلى ذلك منذ القرن الماضى ، فقال أحد الجامعيين إذ ذاك ما معناه : « إن الجامعة إذا لم تقرن التعليم بالبحث كانت كالعين الحمئة أو البركة الراكدة ، يعب الطلاب من سطحها الماء الآسن مختلطاً بخيوط الطحاب والريم ؛ فإذا ما جمعت بينهما غدت كالنبع الفائض ، أو المورد الجارى ، ينهل منه الطلاب ماء قراحاً يروى ظمأهم ، ويجلو نفوسهم ، ويفيض إلى غيرهم من الظامئين » .

وإذا نحن تتبعنا تاريخ الجامعات البريطانية من الناحية التعليمية وجدنا أنها كانت تعنى فى القرن الماضى أكثر ما تعنى بتخريج قادة الأمة وحكام الإمبراطورية . فكان يؤمها فى الغالب أبناء طبقة معينة تعد نفسها للحكم والإدارة فى بريطانيا وما وراء البحار ، وتعتبر التعليم الجامعى وسيلة صالحة بل أداة ضرورية فى إعداد الفرد من هذه الناحية . ثم تحولت الجامعات عن ذلك خلال الجيل الأخير إلى ما أصبح يعرف « بالتعليم الجامعى المهنى » الذى يعد الطلاب لمهن معينة ؛ وأصبحت كثرة هؤلاء الطلاب ممن يقصدون إليها لينالوا قسطاً معيناً من

التعليم الفنى الخاص المتصل بإحدى المهن ، كالمهندسين والأطباء ورجال القانون ونفر من المعلمين وغيرهم . ومع أن هذا النوع من التعليم زاد من ارتباط الجامعة بالحياة العملية العامة ، فإن رجال الجامعة أخـذوا يحسون فى الفترة الأخيرة أنه أدى إلى نوع متطرف من « التخصص » فى التعليم ؛ فانصرفت جهود الجامعة إلى تخريج المحترفين الذين يجيدون المهن المختلفة ، ولـكنهم لا ينالون القـدر الـكافى من الثقافة الجامعية العامة . فالطبيب الجامعى مثلاً قد يكون طبيباً ماهراً ، ولـكن انصرافه الشديد لإتقان تعلم مهنته أثناء وجوده فى الجامعة ومستشفياتها يصرفه عن الإفادة من وجوده فى الجامعة لتوسيع ثقافته العامة ، واستكمال أسـباب تكوينه كمواطن يجب أن يتفهم المجتمع الذى يعيش فيه ، وأن يدرك قيمة مهنته فى الحياة العـامة . وكذلك الحال فى المهندس وغيره ممن يتخرجون فى الجامعة . وحتى فئة المدرسين قد تبين الآن أن الجامعات فى بريطانيا لا تخرج منهم إلا ربع من تخرجهم دور المعلمين التى لا تتصل بالجامعات ؛ وذلك يعتبر نقصاً تسعى الجامعات إلى تلافيه ؛ إذ أن من يريد أن يحترف مهنة التعليم هو أولى من غيره بالحياة فى الوسط الجامعى ، والإفادة منه فى تكوينه الثقافى العام إلى جانب إعداده لمهنته الخاصة . كذلك ترى الجامعات أن يتسع نطاق عملها فى التعليم المهنى ، بحيث يشمل جميع من يعدون أنفسهم للمهن العامة فى المجتمع ، لا سيما ذات الصفة الاجتماعيـة ، كمهن إدارة الأعمال فى الشركات والمصانع ، ووظائف الإدارة الاقليمية والبلدية وغير ذلك .

وأما الناحية الرابعة والأخيرة التى تتمم رسالة الجامعة فى الجيـل الجديد فمرتبطة بالناحية الثالثة ؛ ولـكنها تتناول جانباً خاصا من التربيـة والتهذيب يستحق عناية خاصة ، وهو جانب التربية الخلقية ، التى لا يقصد بها هنا ترويض الطالب الجامعى على الخلق الـكريم والأخلاق الفاضلة ؛ إذ ليس من وظيفة الجامعة تهذيب النفوس بعـد أن يصيبها السقم ، وتقويم الخلق بعد أن يعوج ؛ ولن تستطيع الجامعة أن تحل محل البيت والمدرسة ، ولا أن تصلح ما أفسداه إلا بقدر محدود وفى حدود ضيقة . وليس يجدى كثيراً فى دور الشـباب أن تنقلب الجامعة إلى دار للتأديب والتهذيب أو للوعظ والإرشاد ؛ بل إن ضرر ذلك قد يكون أكثر من نفعه . وليس من الإنصاف أن تكلف الجامعة مالا تطيق وما لم تنشأ من أجله . لذلك يرى الجامعيون أن يقتصر التهذيب الخلقى فى

الجامعة على ما تستطيع أن تتقن ؛ فتعين الطالب على تربية شخصيته فى دور الشباب، وتحول نشاطه الفائض إلى ما ينمى فيه روح الجماعة ويعوده تحمل المسئولية وقبول التضحية كمواطن يعيش للمجتمع كما يعيش لنفسه . ويذهب بعض الجامعيين فى بريطانيا إلى أن يقترح فرض الخدمة العسكرية الإجبارية على الطلاب خلال عام قبل تقدمهم للدراسة الجامعية مباشرة ؛ فهى خير ما يعود الطالب الطاعة ، ويجبله على حب العمل فى الجماعة ومن أجلها ؛ وإن كانت كثرة رجال الجامعة ترى أن من الممكن تربية الشخصية وإنماء روح الجماعة فى الطالب إذا توسعت الجامعات فى تكوين جمعيات الطلبة من رياضية واجتماعية وعلمية وأدبية ؛ فهى التى تمكن الطلاب من أن يفيدوا إلى أبعد حد مما يعرف بالحياة الجامعية فى أوسع معانيها . ولا شك أن إعداد الطالب من هذه النواحى المتصلة بالشخصية وتحمل المسئولية وإدراك الحق والواجب فى وضعهما الصحيح ، كل ذلك مما يعين الطالب بعد تخرجه على أن يصبح مواطناً صالحاً مهما كانت مهنته فى المجتمع عالماً أو طبيباً أو مهندساً أو معلماً أو غير ذلك .

* * *

تلك أمهات المسائل التى فكر الجامعيون البريطانيون فيها أثناء الحرب . وهى مسائل تتناول رسالة الجامعة من أساسها ، وترسم الخطة لتحول خطير فى الفكر والحياة العقلية ، وفى علاقة العلم والتعليم بالحياة العملية والشئون العامة . وقد يبدو غريباً أول الأمر كيف يشغل القوم أنفسهم بمثل هذا البحث فى حين كان المنتظر أن تشغلهم الحرب وأن تلهيهم عن كل شىء ، وفى حين يبدو التعليم الجامعى والثقافة الجامعية فى أيام الحرب لوناً من ألوان الترف العقلى دونه أمور كثيرة أشد خطراً فى حياة أمة محاربة . ولكن العصر الحديث لم يعد يحتمل أن تشغلنا فيه مشاكل اليوم مهما اشتدت عن التفكير فى الغد وشئونه . والجامعة إن أرادت أن تقود الأمة فى الفكر والثقافة يجب أن تكون أول من يستشعر تغير الزمن ، وأول من يستعد للمستقبل ؛ وهى فى المجتمعات الصالحة للبقاء قد حاولت أن تفعل ذلك .

وبعد ، فقد يكون فيما ذكرت ما يثير الفكر فيما نحن بسبيله فى مصر . فليس من شك فى أننا ساهمنا فى الحرب ، وفى أن مجتمعنا المصرى سيتأثر بها فى مستقبله

القريب إلى حد لا يقل عن تأثر غيره بها من الشعوب . وليس من شك أيضاً فى أن لنا جامعة أو جامعات قد تصدت ، أو كان يجب أن تتصدى ، لزعامة الفكر والنهضة العلمية والثقافية ، بل النهضة العامة ، فى بلادنا وفى جانب من بلاد الشرق . . . فهل أيقظت الحرب فينا ، أو هل يبعث انقضاؤها وإقبال السلم ، بعض هذا الوعى ، ولو فى فئة ممن بيدهم شئون الجامعات فى مصر ؟ .

سليمان حزين

أنتِ كالنّاس !

جفّ الغديرُ وصوّح الزّهرُ
فالآن لا سكنٌ ولا رَوْحُ
لم يبق إلاّ الفكر والشّعرُ
وأسًى أرقُّ حديثها جُرحُ (١)

* * *

لم يبقَ إلاّ لَوْعةُ الذكرى
وحطامُ آمالٍ وأحلامِ
ومَناسِرٌ ومخالبٌ حيرَى
بين الرّجاء وقلبيَ الدامى (٢)

* * *

وخيالُكِ النشوانُ بالإثمِ
تتضاحك الأقدار فى فيهِ
سكرَى بما أهرقتِ من وهمى
وحطمتِ من كأسٍ أفدّيهِ

---

(١) الأسى : جمع أسوة ما يتأسى به المرء — (٢) المناسر : جمع منسر منقار الطائر الجارح

* * *

ومثالكَ المرسومُ في خَلَدي
خزيانَ يُرْعَشُ من مهاويكِ
يا ويحه ! أفنيتُ فيه يدي
ومحاه رِجْسٌ من أياديكِ

* * *

سوَّيتُه روحاً اقدِّسهُ
وتراه رَجْعَ قرارها نفسي
أشتاقه وأهابُ ألمسهُ
وأُريده فيخونني حِسِّي .

* * *

أسدلتُ في محرابه الحُجُبا
وسما به ما شاء حرماني
وعشقتُ خلف سُتوره الغيبا
ولمحتُ عند علاه سلطاني

* * *

قد قلتُ حين طلعتِ في افُقي
بيضاء يغمرُ نورك الآفُقا
قد غاب ليلُ الشجو عن طرُقي
وبدا الصباح يضاحك الطرُقا

***

ألقيتُ أحزاني إلى أمسى
وزها بأول بسمةٍ قلبى
ونسيتُ أوّلَ مرّةٍ نفسى
وهجرت آلامى إلى الحبِّ

***

وهجرتُ آلامى إلى افُقِ
ينفى الهموم وينفحُ البِشْرا
باكرتُه بجناح مُنْطلقٍ
ورفعتُ فيه للهوى قصراً

***

قصرٌ تُشارِفُ ساحَه القِمَمُ
سِحْرٌ وكلٌّ فتونه أنتِ
إن تسكنى يتهامس النغَمُ
ويموج فيه اللحنُ إن سرتِ

***

تتخطرين وثوبُك التّبرى
بادى الهُيامِ بساقِك العاجى
ألْوانُهُ إشراقةُ الفجرِ
وحفِيفُه خفَقَاتُ أمْوَاج

* * *

تسرى بأنهارٍ مُسبِّحةٍ
تَهْفو إليكَ بروحِ مُشْتاقِ
سَلْسالُهُنَّ رَفيفُ أجنحةٍ
ونسيمهُن حديثُ عُشّاقِ

* * *

وعلى الضفافِ مُدَلَّه صادي
يأبَى الورودَ لغيرِ سُقياك
شفتاك أشهى خمرةِ الوادى
ونَميرُه الرَّقراقُ نَجْواك

* * *

أهْفو لصوتِ جمالِك الدّاعى
وأهابُ صَمتَ جَلالِك السامى
فإذا أجبتُ نِداء أطماعى
تتراعَشُ الأسْتار قدّامى

* * *

وطلعتِ فالتمعتْ بك الدُّنيا
لمْعَ الشُّعاع تسوقه الظُّلَمُ
فجرٌ كَذوبٌ النُّور لا يحيا
ومَعينُه الدَّيْجورُ والعَدَمُ

* * *

مَنْ أنت ؟ ما أنت التي مَنَحتْ
كابي الرمادِ تألُّقَ الماسِ
من أنت ؟ إنّ الحُجْبَ قد رُفِعَتْ
واحسرتا ! أفأنتِ كالنّاسِ ؟

* * *

ملّيْتُ منكِ العينَ والسَّمْعا
وسلوتُ عِشْقَ الغيبِ والسّرِّ
فإذا الرُّواءُ غِلالةُ الأفعى
وإذا الصفاءُ رَبيئةُ الشرِّ

* * *

شفتاكِ لا ماءٌ ولا خمْرُ
أسطورتانِ رَواهما وَهْمى
وخُطاكِ لا عاجٌ ولا تِبْرُ
ويحَ الخيالِ ! وبُعْدَ ما يرمى

* * *

طالعتُ منه مصرعَ النَّسْرِ
وشهدت فتك الرِّجْسِ بالقُدْسِ
فضمَمْتُ أحزانى إلى صَدْرى
ورجعتُ مغلوباً إلى نفسى

عبد القادر القط

پول ڤاليرى

يسميه الفرنسيون شاعر العقل ، ونستطيع أن نسميه عقل الشعر ؛ فهذان الوصفان يصورانه أصدق تصوير ، وكلا الوصفين يطابق صاحبه مطابقة دقيقة صادقة. والواقع أن حياة پول ڤاليرى قد كانت سباقاً بينه وبين الأدب، يفر هو من الأدب ما وجد إلى الفرار سبيلا، ويجدّ الأدب فى طلبه ما وجد إلى الجد فى طلبه سبيلا . وقد يضطر هذان المتسابقان إلى أن يلتقيا ، فإذا كان بينهما اللقاء بدأ بينهما حب عنيف ووصال شديد القسوة قوامه الصراع المتصل، ثم ينكشف هذا الجهاد عن أثر من الآثار لا يستطيع الانسان أن يقول أى المصطرعين قد غلب صاحبه عليه ، أهو الأدب الذى قهر پول ڤاليرى فأكرهه على أن يخرج للفرنسيين أروع ماعرفوا من الشعر وأبرع ماقرءوا من النثر، أم هو پول ڤاليرى الذى قهر الأدب واضطره إلى أن يذعن لسلطان العقل ويخضع لأصوله الدقيقة ومناهجه الصارمة ، ويخرج للفرنسيين حكمة مشرقة وفلسفة مضيئة قوامها الخير فى أبدع صوره ، والحق فى أكرم مظاهره ، والجمال كأروع ما يكون الجمال .

وقد يظن القارئ أنى أذهب بهذا الحديث مذهب التمثيل والمجاز المقارب أو المباعد والافتنان فى التعبير، ولكن الواقع من حياة پول ڤاليرى ومن جهده العقلى والأدبى يطابق هذه الصورة التى عرضتها عليك أدق المطابقة وأصدقها .

فقد ولد پول ڤاليرى سنة ١٦٧١ فى مدينة ست ونشأ فيها وبدأ فيها درسه ، حتى إذا بلغ الرابعة عشرة انتقل إلى مونبلييه ليتم فيها درسه الثانوى . وكان أثناء هذا الدرس مزدرياً لنظام الدراسة، معرضاً عن درس المعلمين، ناقداً لأساتذته، ساخراً مما يقولون ، مؤثراً الاعتماد على نفسه فى تحصيل ما يحتاج إليه أو ما يميل إليه من العلم. وكان طموحاً إلى العمل فى الأسطول ضابطاً بحريًّا ، ولكنه لم يظفر من العلوم الرياضية بما كان فى حاجة إليه ليدخل المدرسة البحرية . ولذلك أعرض عن البحر وعن الأسطول وعن الرياضة واكتفى بدراسة الحقوق . ثم كانت الخدمة العسكرية حين أتم التاسعة عشرة من عمره فى مدينة مونبلييه أيضاً . وفى

هذا الوقت عرف شابين فرنسيين كان لهما حظ من البحر عظيم: أحدهما بيير لويس، والآخر أندريه جيد. ولما فرغ من الخدمة العسكرية، وكان قد قرض شيئاً من الشعر، لم تعجبه الحياة الأدبية، فقرر الانصراف عنها والفراغ للحياة العقلية الخالصة، وأنفق فى هذه الحياة العقلية الخالصة أعواماً. وأكبر الظن أنه أخذ يقرأ آثار الفلاسفة القدماء والمحدثين، ويفكر فيما يقرأ ناقداً محللاً مستنبطاً. وأكبر الظن أن السباق بينه وبين الأدب قد بدأ فى ذلك الوقت؛ فهو كان قرض شيئاً من الشعر ونشره فى بعض المجلات وظفر بشىء من الإعجاب، ولكنه أعرض عن الشعر وفرغ للفلسفة، وإذا حياته العقلية التى فر إليها من الأدب تثير فى نفسه خواطر لا يجد بداً من تسجيلها، ولو استطاع لما سجلها ولا حفل بها. ولكن هذه الخواطر تلح عليه وتلح، وتضطره إلى أن يقف عندها ويطيل الوقوف، ثم إلى أن يسجلها فيحسن التسجيل، وهو يكتب آيته الرائعة «مسيو تست». ومسيو تست هذا ليس إلا پول ڤاليرى فى هذا الطور من حياته، حين شغف بالعقل وآثر أن ينحاز إليه ويقف نفسه على التفكير فيه، وحين بهره ما رأى من حياة العقل فيما بينه وبين نفسه أولاً وفيما بينه وبين الحقائق الخارجية ثانياً. وقد اضطره هذا المشهد الرائع الذى استكشفه حين عكف على نفسه إلى حياة داخلية قوية أشد القوة، إن صح هذا التعبير؛ فهو قد استكشف فى ضميره عالماً أشد جمالا وأعظم روعة وأكثر دقة وتنوعاً من العالم الخارجى الذى يعيش فيه، فمنح عنايته كلها أو أكثرها لهذا العالم الداخلى، وعاش مع نفسه أكثر وقته، ولم يصبح العالم الخارجى بالقياس إليه إلا وسيلة للعالم الداخلى يمنحها من العناية أيسرها وأهونها شأناً. فهو يحيا بين الناس وكأنه لا يراهم، ويتحدث إليهم وكأنه لا يسمعهم لأنه مشغول بهذا العالم الرائع البديع الذى يملأ نفسه من جميع أقطارها. فحياته فى العالم الخارجى آلية غافلة ذاهلة، ولكنه يمنح هذا العالم الخارجى فى بعض الأوقات النادرة لفتة من لفتاته، وإذا هو يلتهمه التهاماً وينقض عليه كما ينقض الوحش على فريسته، ثم لا يلبث أن ينصرف عنه إلى عالمه الخاص وكأنه لم يره ولم يلم به.

والمهم هو أن پول ڤاليرى الذى فر من الأدب إلى الفلسفة لم يستطع أن يفلت من الأدب، وإنما أدركه الأدب، وكان بينهما هذا الجهاد الذى انتهى بإنشاء هذا الكتاب الذى سيظل شابا دائماً وخصباً دائماً وحافلاً بما يملأ النفس

إعجاباً وبما يدفع العقل إلى التفكير المتصل الذى لا يضيع فى غير نفع ولا يذهب فى غير غناء.

وفى هذا الكتاب الصغير القصير الحجم الكبير الطويل بقيمة ما فيه من فن وفلسفة، ظهرت هذه الشخصية القوية التى عرفها المثقفون والمتأدبون لپول ڤاليرى أثناء حياته كلها. فإذا كان شخص پول ڤاليرى يمتاز بشىء فى حياته، وفيما أنتج من شعر ونثر، فإنما يمتاز بهذا الصراع المتصل العنيف المتغلغل فى كل شىء المتناول لكل شىء بين عقله العظيم الرزين ذى المزاج المعتدل والبصيرة النافذة والقدرة على التجريد والنظر إلى الأشياء من علٍ، وبين حسه الدقيق المرهف وشعوره الرقيق الحاد وذوقه المصفّى المهذّب. ثم يمتاز بأن هذا الصراع ينتهى دائماً إلى نوع من السلام الممتاز الرائع بين العقل والحس والشعور والذوق. فأنت حين تشهد نتائج هذا الصراع إنما تشهد انسجاماً غريباً بديعاً بين هذه العناصر كلها، قد أخذ من كل واحد منها بمقدار، ولاءم بين هذه المقادير ملاءمة دقيقة إلى أبعد حدود الدقة، بحيث لا تستطيع أن تجد فيها عوجاً ولا أمتاً ولا انحرافاً. ومصدر هذا كله أن هذه الملكات التى يأتلف منها شخص پول ڤاليرى قد كانت قوية إلى أبعد غايات القوة، معتدلة مع ذلك إلى أقصى حدود الاعتدال. وكانت إرادة پول ڤاليرى متسلطة على هذه الملكات تسلطاً قوامه الحزم والعدل؛ فهى تلائم بينها فى صرامة وتقيم الأمر بينها بالقسطاس وتمنع بعضها أن يبغى على بعض. وما أعرف أنى قرأت لكاتب أو شاعر فى لغة من اللغات التى استطعت أن أقرأ فيها، فوجدت هذا الاعتدال والاستواء والتناسق كما أجدها فيما أقرأ لهذا الكاتب الشاعر العظيم، لا أستثنى من ذلك إلا حوار سقراط. وما أظن أن شيئاً قد أثر فى التكوين العقلى لڤاليرى كما أثر فيه حوار سقراط.

وفى أواخر القرن الماضى فى سنة ١٨٩٨ كان پول ڤاليرى الذى قارب الثلاثين يعيش فى باريس، وقد اشتغل موظفاً فى وزارة الحرب معرضاً عن الأدب والأدب يطلبه، متصلاً مع ذلك بالشاعر الفرنسى العظيم «ستيفان مالرميه» محباً له مفتوناً بفنه الغامض الذى يروع باستوائه والتوائه، إن أمكن أن يجتمع الاستواء والالتواء، والذى يفتن بدقته وارتفاعه إلا عن العقول والملكات التى امتازت حتى كادت تصبح هى والامتياز شيئاً واحداً. وفى سنة ١٩٠٠ فقد پول ڤاليرى أستاذه

ما الرمية وترك وزارة الحرب والتحق بشركة هاڤاس البرقية واتخذ له زوجاً، وأمعن فى الانصراف عن الأدب، وخيّـل إلى نفسه وإلى الناس أن قد قطعت الصلة بينه وبين خصمه هذا العنيد إلى آخر الدهر . ويقول الذين يعرفونه والذين تتبعوا حياته فى الأعوام الأولى من هذا القرن إنه مضى فى حياته العقلية الفلسفية، وإنه تعمق الرياضة التى استعصت عليـه فى أيام الشباب الأولى ، ولـكنه قد نشر فى بعض المجلات وأرسل إلى بعض الأصدقاء مقطوعات من الشعر أحبوها ورضوا عنها . وقد أقبل أندريه چيد ذات يوم على صديقه پول ڤاليرى سنة ١٩١١ حين بلغ الأربعين من عمره يطلب إليه الإذن فى أن يجمع ما تفرق من شعره لينشره فى المجموعة التى كانت تنشرها المجلة الفرنسية الجديدة . وقد امتنع پول ڤاليرى على صديقه امتناعاً شديداً ، ولكن أندريه چيد ألحّ إلحاحاً شديداً أيضاً، وانتهى الأمر إلى أن قبل ڤاليرى إعادة النظر فى شعره ذاك .

وقد استأنف النظر فى هذا الشعر، فلم ينفق فى ذلك أياماً ولا أسابيع ولا أشهراً، وإنما أنفق فيه خمسة أعوام أو أكثر من ذلك قليلا . ففى سنة ١٩١٧ فوجىء الناس بظهور الديوان الأول لهذا الشاعر الممتنع على الشعر ولهذا الأديب المتأبى على الأدب. وكان پول ڤاليرى قد قارب الخمسين من عمره . وليس من شك فى أن ديوانه الأول ثم ما تبعه من الشعر والنثر بعـد ذلك قد فجأ المتأدبين فجاءة قوية رائعة ، وإذا پول ڤاليرى يحتل مكانه بين الأدباء والشعراء والممتازين ، كأنما كان هذا المـكان الممتاز قد هيئ له من قبـل فهو ينتظره منذ وقت طويل . ومنذ ذلك الوقت شغلت البيئات والمجلات الأدبية والصحف السيارة بأدب پول ڤاليرى أكثر مما شغلت بأى إنتاج أدبى آخر . ثم أخذ نجمه يتألق فى الأفق حتى ملأه نوراً ، وإذا هو يتجاوز حدود فرنسا إلى أقطار الأرض كلها، وإذا هو أديب عالمى فى أقل من عشر سنين منذ نشر ديوانه الأول ، وإذا هو عضو فى المجمع اللغوى الفرنسى فى سنة ١٩٢٧ يشغل كرسى أناتول فرانس ويلقى خطبته الرائعـة التى لم يفرغ الناس من الحـديث عنها بعد والتى لم يدافع أحد عن أناتول فرانس كما دافع عنه فيها . وقد أنشأت عصبة الأمم مجلس التعاون الفـكرى ، وأنشأ هذا المجلس لجنة الفنون والآداب ، وأصبح پول ڤاليرى رئيساً لهذه اللجنة بل أصبح عقلها المفكر وقلبها النابض . ثم أنشئ معهد البحر الأبيض المتوسط فى نيس وأصبح پول ڤاليرى رئيساً له ، ثم أنشئ فى الـكوليج دى فرانس كرسى للشعر وأصبح

پول ڤاليرى صاحب هذا الكرسى، وهو قد عين أستاذاً بعد أن نيف على الستين.

وكذلك أصبح پول ڤاليرى حامل لواء الأدب والشعر فى فرنسا وعلماً من أعلام الثقافة العليا فى أقطار الأرض كلها ، واتصل بكل شىء وشارك فى كل شىء ، حتى كان يقول إنه أصبح رئيساً لهيئات ومؤسسات لا يكاد يحصيها ، وإنه كثيراً ما يدعو نفسه بكتاب منه إليه ليشهد هذا الاجتماع أو ذاك لهذه الهيئة أو تلك .

فإذا امتازت الحياة الأدبية لپول ڤاليرى بشىء فى ظاهر الأمر فانما تمتاز بامتناع صاحبها على الأدب أشد الامتناع وإيثاره للعزلة حتى جاوز الأربعين ، ثم استجابته بعد ذلك للأدب كارها، واندفاعه فى هذه الاستجابة حتى عوض ما فات واسترد ما كان خليقاً أن يكسبه من المجد والشهرة فى عزلته الطويلة ، وكسب فى وقت قليل ما ينفق فيه غيره الأعوام الطوال والأعوام الطوال ليكسب بعضه . فقد ظهر پول ڤاليرى فجاءة فى السابعة أو الثامنة والأربعين من عمره ، ولم يبلغ الستين حتى كان قد ملأ الدنيا وشغل الناس، كما كان يقال فى المتنبى منذ ألف عام. فلما توفى وقد نيف على السبعين كانت الفاجعة بموته خطباً شاملاً للعالم المثقف كله لا محنة مقصورة على فرنسا وطنه .

وما زالت هناك مسألة غامضة سيكشفها التاريخ الأدبى فى وقت قريب أو بعيد، وهى مسألة عظيمة الخطر. فهل كان پول ڤاليرى أثناء عزلته الطويلة يتهيأ عن عمد لهذا المجد الأدبى الذى فاجأ به الناس، أم هل كان صادقاً كل الصدق مخلصاً كل الإخلاص فى إعراضه عن الأدب وامتناعه عليه حتى فاجأه المجد كما فاجأ الناس ؟ ومهما يكن من شىء فإن الحقيقة الواقعة التى نستطيع أن نسجلها مطمئنين هى أن پول ڤاليرى قد آثر الأناة والاحتياط والحذر، وأبغض الشهرة والمجد والمتهالكين عليها ، وقدر الفن على أنه غاية لا وسيلة، بل على أنه الغاية العليا التى يطمح إليها الانسان حين يبلغ أقصى ما يستطيع أن يبلغ من الامتياز من الثقافة والمعرفة. فهو لم يبغض شيئاً كما أبغض السهولة، ولم يزدر شيئاً كما ازدرى الإسراع إلى الإنتاج والاسراع فى الانتاج والاستجابة لهذه الدواعى الكثيرة التى تدعو إلى الانتاج وتدفع إليه دفعاً فى كثير من الأحيان . وليس بالشىء القليل أن يمتنع الفرد على عصره، ويلتزم عزلته ، ويزدرى هذه المغريات الهائلة التى كان الناس يستجيبون لها من حوله، بل يسعون إليها سعياً ويلحون فى التماسها

إلحاحاء ويبتغون إليها من الوسائل مايعقل ومالا يعقل . وهنا تظهر الخصلة التى يمتاز بها بول ڤاليرى فى حياته الخلقية ، وهى خصلة الكرامة التى تمنح صاحبها مزاجا من التواضع والكبرياء ، وتمنحه التواضع بالقياس إلى المثل العليا وما يحتاج إليه من تكلف الجهد العنيف واحتمال العناء الشاق والإلحاح فى السعى المتصل وتمنحه الكبرياء التى ترفعه عن الصغائر وتنزهه عن الدنيات وترغبه عن الأشياء التى يقرب تناولها ، وتنحرف به عن الغايات التى يسهل الوصول إليها . ثم تؤلف له من هاتين الخصلتين هذا المزاج المعتدل الرفيع الذى يجعله من هذه الأرستقراطية العقلية، وإذا هو يسعى إلى مُثُله العليا على بعدها ملحًّا فى السعى غير راض بما يبلغ منها مهما يكن ما يبلغه ، متخذاً فى سعيه إليها أبعد الطرق وأشدها عسراً وأكثرها عقاباء واجداً لذته فى إساغة هذا العسر وقهر هذه العقاب والتغلب على هذه المصاعب ، مبتكراً هذه العقاب والمصاعب إن أحس أن الطريق قد سهلت له واستقامت أمامه وأصبحت خليقة أن تبلغ به غايته فى جهد معتدل وسعى يسير .

وهذه الخصلة لم تؤثر فى حياته الأدبية وحدها ، وإنما أثرت فى حياته المادية أيضاً ؛ فهو لم يلتمس قط ثروة ولم يسع قط ليبلغ هذا المأرب أو ذاك من مآرب الحياة . ولما أدركته الشهرة لم يستغلها ولم يستثمرها ولم يتخذ أدبه وسيلة إلى فتنة القراء ورضا الجمهور وتحقيق الثراء العريض، وإنما ظل مزدريا للشهرة معرضاً عن المجد، يشتهر عن رغمه ويرقى على كره منه ولا يبلغ من ذلك ثراء ولا رخاء . وقد كان عضواً فى المجمع اللغوى منذ عشر سنين حين أنشئ له كرسيه فى الكوليج دى فرانس ، فهو لم يسع إلى الكوليج دى فرانس وإنما هى التى سعت إليه ، ولم يطلب المجمع اللغوى وإنما هو الذى طلبه ولقد شهدته فى بعض المجامع الأدبية وقد نهض بعض الحاضرين يذكر الأدباء الذين بلغوا من المجد ما بلغوا ويسرت لهم الحياة فاطمأنوا إلى شىء من الدعة ، ولاءموا بين ذلك وبين حرصهم على إرضاء الفن والنهوض بحقه . وكأن بول ڤاليرى أحس فى حديث هذا المتحدث تلميحاً إليه أو تعريضاً به ، فقال هذه الجملة التى لن أنساها ، فى ذلك الصوت الذى لن أنساه : « نعم بعد أن كادوا يموتون جوعاً » .

وقد عرفت بول ڤاليرى من بعيد حين فجأ الناس بأدبه الرفيع فى أعقاب الحرب الماضية، فأعجبت به كما كان يعجب به الناس إعجاباً يقوم على التقليد أكثر

مما يقوم على الدراية الصحيحة . ثم أقبلت على آثاره أقرؤها المرة والمرة والمرات ، وإذا أنا أحبه عن فهم له . ولكن أى فهم ! فهم ليس بالقريب ولا بالمقارب ولا باليسير ، وإنما هو نتيجة الجهد المكرر والقراءة المرددة والتفكير المتصل ، ثم هو بعد ذلك ليس راضياً عن نفسه ولا مطمئناً إلى ما وصل إليه . والذين يقرءون آثار بول ڤاليرى سواء أكانت شعراً أم نثراً يتفقون على أن اللذة التى يحصلونها من هذه القراءة لا تأتى من فهمه واستيعابه ، وإنما تأتى من محاولة فهمه سواء أنجحت المحاولة أم أخفقت ، ثم تأتى مع ذلك من هذه اللغة الصافية العذبة السائغة التى تجمع بين الرقة والرصانة وبين النعومة والجزالة ، والتى تخيل إليك أنها واضحة كل الوضوح ، وهى كذلك واضحة كل الوضوح ولكنها على ذلك مليئة بالأسرار . لا تقرؤها مرة إلا حصّلت من قراءتها علماً ولذة لعقلك وذوقك وشعورك جميعاً . وقد أتيحت لبول ڤاليرى أشياء لم تتح لكثير غيره من الكتاب والشعراء . فقد كان كشاعرنا القديم المتنبى يستطيع أن ينشد :

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جرّاها ويختصم

وقد تحدثت فى غير هذا الموضع عن اختلاف العلماء والأدباء من الفرنسيين فى فهم شعره وتأويله وتفسيره وعن قصيدة المقبرة البحرية التى خصص أستاذ من أساتذة السوربون بعض دروسه لتفسيرها للطلاب ، وقد شهد بول ڤاليرى بعض هذه الدروس ، وجمع الأستاذ بعد ذلك دروسه فى كتاب قدمه له بول ڤاليرى بمقدمة فيها ظرف وثناء كثير . ولكن الذين يقرءون هذه المقدمة يخرجون من قراءتها غير واثقين بأن الشاعر قد رضى عن شارحه الأستاذ كل الرضا .

وليس نثر بول ڤاليرى أقل حاجة إلى التدبر والروية ومراجعة القراءة من شعره ، وليس هو أقل إمتاعاً للنفس وإرضاء للعقل والقلب من شعره أيضاً . ومع ذلك فقد كان بول ڤاليرى نفسه يرى أن النثر أقصر حياة من الشعر ؛ لأن النثر أيسر على الأفهام من الشعر ، وإذا فهمت نصًّا فقد قتلته . ولست أدرى أصحيح هذا أم غير صحيح ، ولكنى واثق بأن الجيل المعاصر لبول ڤاليرى لم يقبل نثره كما أنه لم يقبل شعره . ولكنى أشارك النقاد المعاصرين من أهل فرنسا فى أن الأجيال المقبلة لن تستطيع أن تتقبل شعره أو نثره ، ولكنى مطمئن كما اطمأن

النقاد المعاصرون فى فرنسا إلى أن پول ڤاليرى لم يمت وإنما ذهب شخصه المادى ، فأما شخصه المعنوى فخالد فيما ترك من شعر ونثر .

وقد تحدث پول ڤاليرى نفسه عن « ديكارت » فأنبأ الذين كانوا يسمعون له فى السوربون ان عظماء الرجال من أهل الثقافة خاصة إنما تنمو شخصياتهم وتقوى بعد أن يموتوا وبعد أن يمضى على موتهم وقت طويل أو قصير . وكأنما كان يتحدث عن نفسه ؛ فشعره ونثره وأدبه كله سيقدم إلى الأجيال هذا الغذاء الرفيع؛ وسيحيا فى هذه الأجيال حياة متصلة ، وستكون هذه الحياة مؤتلفة ومختلفة معاً . مؤتلفة فى هذه الكتب والدواوين التى تركها للانسانية تراثاً ، ومختلفة فى نفوس الذين سيقرءونها ويسيغونها ويتمثلونها ويكونون لأنفسهم صورة ما لصاحبها تلائم ما يستطيعون من التصور والتصوير جميعاً .

ولم يكن پول ڤاليرى كغيره من الأدباء ينظم الشعر ويكتب النثر فى هذه الموضوعات التى يتكلفها الكتاب والشعراء قصصاً وتمثيلا ودراسات ، ولكنه كان صاحب تعمق لأشياء مختلفة ، لا تكاد تتفق إلا فى أنها كلها تتصل بالفن المترف الجميل من جهة ، وبالعقل الناقد المستقيم من جهة أخرى .

فهو يكتب فى العمارة ، ويكتب فى الرقص ، ويكتب فى النفس ، ويكتب فى العقل ، ويكتب فى التصوير والنحت والرسم والموسيقى والغناء . ثم هو يكتب فى نقد الأدباء والفلاسفة والمثالين والمصورين . وما أعرف أن أحداً قرَّب إلى القراء ديكارت أوليونارد دى ڤنسى أوستندال أومونتسكيو أولافونتين كما يقرِّبهم پول ڤاليرى. وماأعرف أن أحداً حلل الفنون الرفيعة كما يحللها پول ڤاليرى. وما أعرف أن أديباً أو فيلسوفاً حلل عمل العقل الانسانى وهو يفكر ويلاحظ ويتأمل ويستمتع ويعكف على نفسه كما حلله پول ڤاليرى .

وقد قلت فى أول هذا الحديث أن پول ڤاليرى قد تأثر أشد التأثر بحوار سقراط كما نقله أفلاطون. وما أشك فى أن پول ڤاليرى كان من أشد الناس إتقاناً للغتين القديمتين ، وعلماً بأسرارهما وتذوقاً لخصائصهما . وقد كان يقول فى شىء من السخرية إن الذين يزعمون أنهم يحسنون اللاتينية أو اليونانية فى هذه الأيام يخدعون أنفسهم ؛ لأنهم لا يستطيعون أن يستعينوا على قطع الوقت فى القطار بقراءة توسيديد أو تاسيت . ولن يحسن الانسان لغة إلا إذا قرأها فى غير مشقة وفهمها فى غير جهد ، وذاقها فى غير عناء . ولكن پول ڤاليرى لم

يتأثر بقديم اليونان والرومان كما يتأثر به غيره من المثقفين الممتازين لحسب ، وإنما تمثل الأدب اليونانى الرفيع والفلسفة اليونانية العليا تمثلا غريباً رائعاً حقا حتى استطاع أن يحدث ألواناً من الحوار يُنطق فيها سقراط وبعض تلاميذه بملاحظات فى الفن وفى الجمال، منها مايتصل بالعمارة، ومنها مايتصل بالنفس، ومنها ما يتصل بالرقص، ما كانت لتخطر لسقراط وأصحابه على بال. وأحسب أنها لو نقلت إلى اليونانية الأتيكية التى كان يصطنعها سقراط وتلاميذه، لما كانت أقل روعة وجمالا من يونانية أفلاطون، ولما كانت أقل روعة وجمالا فى تلك اليونانية منها فى هذه اللغة الفرنسية الرصينة المتينة الرقيقة العذبة التى اصطنعها پول ڤاليرى فى القرن العشرين. ثم هى تزيد على ذلك أن فيها معانى وخواطر وآراء لم يكن سقراط وتلاميذه ليسيغوها لأن بينهم وبينها خمسة وعشرون قرناً تطور فيها العقل الانسانى وزاد محصوله من العلم والمعرفة، وأتاح ذلك كله لپول ڤاليرى ما لم تتحه الحضارة اليونانية لسقراط وأفلاطون.

ومهما تقرأ من شعر پول ڤاليرى ونثره، ومهما يكن الموضوع الذى يمارسه الأديب شعراً أو نثراً، فسترى دائماً أدب اليونان الرفيع وثقافتهم العليا شائعين فيما تقرأ يغذوانه بخير ما فيهما؛ لأن پول ڤاليرى قد خالط اليونان القدماء مخالطة نادرة شديدة التنوع: خالطهم فى أدبهم وفى فلسفتهم وفى فنهم وفى سياستهم، وخالطهم فى دينهم بنوع خاص، ثم خالطهم بعد ذلك فى حياتهم العاملة التى كانوا يحيونها فى ساعات النهار والليل.

ثم هو قد أضاف إلى هذه الثقافة القديمة خير ما أنتجت ثقافة العصر الحديث، فتمثل عصر النهضة فى إيطاليا وفرنسا على اختلاف مظاهر النهضة فيه، ثم تمثل القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر فى أوربا كلها، لم يترك ظاهرة من ظواهر الحياة العقلية إلا أتقنها علماً وفهماً وتأويلاً وتحليلاً. وعنى بالعلم عناية خاصة، فتعمق العلوم التجريبية، وتعمق الرياضة حتى استطاع أن يتحدث عن هذه العلوم كأحسن مايتحدث عنها أصحابها، وأن يجادل الأطباء والعلماء ويصحح لهم آراءهم حين كانوا يشاركون فى وضع المصطلحات العلمية للمعجم الفرنسى الذى يصدره المجمع اللغوى.

ثم هو قد تعمق مذاهب الفلسفة منذ فلسف اليونان قبل سقراط إلى أن فرغ برجسون من إقامة مذهبه الفلسفى الأخير. وهو من أجل ذلك يحاور فى الفلسفة

كأحسن ما يحاور فيها الفلاسفة. ولعله يتمثلها خيراً مما تمثلها الفلاسفة؛ لأنه جمع إلى عقله الناقد الممتاز قلباً ذكياً وإحساساً مرهفاً وشعوراً رقيقاً حاداً وذوقا دقيقاً لا يفوته شىء.

وقد انتهى إلى رأى فى الفلسفة والشعر، أو قل إنه ابتدأ برأى فى الفلسفة والشعر لم يتحول عنه منذ الشباب حين كتب عن ليونارد دى ڤنسى فى أواخر القرن الماضى إلى الشيخوخة حين تحدث عن ديكارت فى السوربون سنة ١٩٣٧.

وهذا الرأى يمكن اختصاره فى هذه الجملة اليسيرة التى لا تؤديه إلا تأدية مقاربة، وهو أن الفلسفة والشعر إنما يصدران فى حقيقة الأمر عن ملكة واحدة فى أصلها، وهى هذه الملكة التى ترفع الانسان عن الحقائق التفصيلية الواقعة إلى عالم آخر أرقى منها، يفسرها ويعرضها فى شىء غير قليل من الروعة يسمو بها إلى هذا الكمال الذى يطمح إليه الانسان الممتاز. فالفيلسوف شاعر يعرض شعره نثراً فى أكثر الأحيان، والشاعر فيلسوف يعرض فلسفته شعراً دائماً.

وقد كان پول ڤاليرى نفسه هو الصورة الكاملة للفيلسوف الشاعر أو الشاعر الفيلسوف. ومن أجل ذلك لم يخطئ معاصروه حين سموه شاعر العقل، ولم أبعد أنا حين سميته عقل الشعر فى أول هذا الحديث.

قلت إنى عرفت پول ڤاليرى من بعيد حين نجأ مجده الناس فى أعقاب الحرب الماضية، وظلت معرفتى له تتقدم شيئاً فشيئاً حتى أصبح أحب المعاصرين من أدباء فرنسا إلىّ وآثرهم عندى، وحتى أصبح الوقت الذى أنفقه مع كتبه ودواوينه حين يسمح لى العمل بالفراغ لنفسى وإمتاعها باللذة الفنية العليا أعز الأوقات إلىّ وأكرمها علىّ، وحتى اتخذت لنفسى منه صورة غريبة رائعة فيها كثير جداً من التواضع وكثير جداً من الكبرياء، وفيها كثير جداً من السماحة وكثير جداً من الامتياز. وقد هممت أن أعرفه لقراء العربية فتحدثت عنه فى الرسالة غير مرة، وتحدثت عنه إلى جمهور المثقفين فى غير محاضرة، وترجمت فى الرسالة شيئاً من كتابه عن النفس والرقص، ولكنى لم أجد لهذا كله فى نفوس المثقفين الشرقيين إلا صدى ضئيلا فآثرت نفسى به. ثم أتيح لى أن ألقاه سنة ١٩٣٧ فإذا الصورة التى رسمتها لنفسى منه صادقة كل الصدق لولا أنه فى تلك السنة لم يكن من الصحة واعتدال المزاج بحيث كان يجب، وقد كان فى فصل الصيف من تلك السنة يعالج أسنانه فيما يظهر

فكان حديثه عسيراً أشد العسر، وكان الاستماع له شاقــًا والفهم عنه أشد مشقة. وأذكر أنى ذهبت أستمع له حين تحدث عن ديكارت فى السوربون، وبذلت جهداً غير قليل لأظفر بمكان فى المدرج الذى كان يتحدث فيه، فظفرت بمكان واقف واستمعت لحديثه من أوله إلى آخره فلم أكد أفهم عنه شيئاً. وسألت بعض الذين استمعوا له معى من الأساتذة فإذا هم مثلى لم يكادوا يفهمون عنــه شيئاً، ولـكنا جميعاً كنا معجبين بهـذا الصوت الهادئ القوى الحار الذى كان يملأ المدرج حناناً وحبـًا وإيماناً. ثم قرأنا الحديث بعد ذلك فإذا هو آية من آيات البيان.

على أنى لقيت پول ڤاليرى بعد ذلك لقاء منتظما فى مجلس التعاون الفكرى وفيما كان هذا المجلس يعقد من مؤتمرات، وفيما كانت هذه المؤتمرات تستتبع من اجتماعات خاصة، فإذا أرق الناس حاشية وأحلاهم شمائل وأعذبهم حديثــًا وأشدهم سخرية، ولـكنها السخرية التى تروق وتروع ولا تؤذى ولا تسوء. ولم يكن يكره الدعابة الحلوة التى لا تخلو من مكر ودهاء. وأذكر أنه كان يرأس مؤتمراً من المؤتمرات يوم افتتاحه، فلما أذن للخطباء جميعاً فى الـكلام وفرغ الخطباء من كلامهم وجاء الوقت الذى كان يجب أن يتكلم هو فيه وصغت إليــه الآذان وأصغت إليه القلوب واشرأبت إليه الأعناق، قال فى صوت هادئ باسم: الـكلمة الآن للرئيس إدوار هريو.

ولم يكن إدوار هريو بين المتكلمين فى هذا الحفل، ولـكن پول ڤاليرى أراد أن يسر المستمعين وأن يداعب هريو ويورطه فى حديث مرتجل من هذه الأحاديث التى يتقنها هريو أشد الاتقان.

وكان آخر لقائى لپول ڤاليرى فى مدينــة جنيف حين اجتمع مجلس التعاون الفكرى فى يوليو سنة ١٩٣٩ قبيل إعلان الحرب. وكان جو جنيف فى تلك السنة قاتماً كئيباً، وكان أعضاء المجلس جميعاً مشفقين من الحرب وأهوالها، وكان پول ڤاليرى أشدهم إشفاقاً وأعظمهم اكتئابا وأكثرهم تشاؤما. فلم يحب الحضارة أحد كما أحبها پول ڤاليرى، ولم يكبر الحياة أحد كما أكبرها پول ڤاليرى ولم يستيئس أحد من حماقة الإنسان وضعفه وجنونه كما استيأس پول ڤاليرى. ومن أجل ذلك كان فى تلك الاجتماعات لا يتحدث عن شىء ينتظر فى المستقبل إلا تحفظ واحتاط كما نتحفظ نحن ونحتاط فنقول إن شاء الله. ولـكنه هو

كان يتحفظ ويحتاط فيقول إن أتيح للحضارة أن تبقى ، أو إن كتب للحرية أن تسلم ، أو إن عصم الانسان من الجنون ، أو ما يشبه هذه العبارات .

وقد كتب على پول ڤاليرى أن يرى تحقيق كل ما تنبأ به ؛ فقد تنبأ بالحرب وأهوالها ، وتنبأ بما ستلقاه أوربا من ذل ، وتنبأ بما ستتعرض له المثل العليا من ضعة وانحطاط ، وقد رأى هذا كله وذاق مرارته صابراً جلداً شجاعاً . واحتفظ بكرامته أثناء الهزيمة ، وابتهج بالنصر مع المبتهجين وقال لأحد أصدقائه وهو يسمع الأناشيد الوطنية للأمم المنتصرة : كل شيء ممكن . ويظهر أن ما أنفق من جهد وما أخذ نفسه به من صبر وجلد وما حمل نفسه عليه من درس وإنتاج وما تعرَّض له من بؤس وحرمان أثناء أعوام الهول ، كل ذلك قد حطم صحته تحطيما ، فذاق حلاوة النصر واستمتع بلذة الحرية ، ولكنه لم يستطع أن يثبت للنعمة بمقدار ما ثبت للنقمة ، فانهار بعد طول المقاومة ، وفارق هذه الحياة أشد ما يكون الأحياء حاجة إليه . من أجل ذلك لم تحزن عليه فرنسا وحدها ، وإنما حزنت عليه الانسانية المتحضرة كلها . وقد كنت كلما فكرت فى زيارة فرنسا بعد النصر أستحضر ساعة حلوة كنت أعلل نفسى بأنى سأقضيها مستمعا لپول ڤاليرى ، فقد ضيعت الخطوب هذه الأمنية ، وما أكثر ما تضيع الخطوب من الأمانى ! ! .

فحسبى أن أعلل النفس بأنى إن زرت فرنسا فسأسعى إلى قبر پول ڤاليرى فى تلك المقبرة البحرية التى رآها صبيا ، وغناها رجلا ، واطمأن فيها الآن إلى آخر الدهر .

ط

مستقبل آسيا بعد هزيمة اليابان

فى منتصف شهر أغسطس الماضى على أثر إلقاء القنبلتين الذريتين الأوليين على ثغرى هيروشيما ونجازاكى ودخول روسيا السوفيتية الحرب ضد اليابان، انتهت اليابان بعد مفاوضة قصيرة حول مركز الإمبراطور إلى قبول ما تضمنه إنذار بوتسدام من وجوب التسليم للأمم المتحدة بلا قيد ولا شرط. وبذلك لقيت اليابان هزيمتها الساحقة، وانتهت الحرب فى آسيا كما انتهت فى أوربا بهزيمة ألمانيا واستسلامها فى أوائل شهر مايو الماضى.

وإذا كانت هزيمة ألمانيا النازية وما ترتب عليها من انهيار صروح الطغيان النازى، وسحق العسكرية البروسية، تعتبر من أعظم العوامل الحاسمة فى تطور مصاير الأمم الأوربية، فان هزيمة اليابان وما ترتب عليها من انهيار صرح الاستعمار اليابانى فى الشرق الأقصى والمحيط الهادى، تعتبر فاتحة عهد جديد بالنسبة لآسيا والأمم الأسيوية.

لبثت اليابان زهاء نصف قرن تندفع نحو الغرب والجنوب بخطى جبارة، وتبسط سلطانها تباعاً على مساحات شاسعة من الجزر والأراضى القريبة منها، وكانت الصين وهى نصف القارة الأسيوية المواجه لها، هى الهدف الطبيعى للاستعمار اليابانى. وبدأت اليابان سياسة التوسع مذ آنست قوتها ونضجها فى أواخر القرن الماضى. وفى سنة ١٨٩٤ قامت بأول تجربة ناجحة لها فى هذا السبيل حيث اشتبكت مع الصين فى حرب من أجل شبه جزيرة كوريا الصينية التى لا يفصلها عن الجزر اليابانية سوى مجاز ضيق، وخرجت اليابان من هذه الحرب الأولى بنصر باهر، واستطاعت أن ترغم الصين على الاعتراف باستقلال كوريا، وعلى أن تنزل لها عن قسم من منشوريا وجزيرة فرموزا وجزر أخرى فى بحر الصين. ولكن اليابان اضطرت أزاء تدخل الدول الأوربية إلى النزول عما كسبته فى منشوريا واكتفت بما استولت عليه من الجزر.

ولفتت هذه التجربة نظر الدول الأوربية إلى خطر هـذه القوة الجديدة . ولم تكن الصين فى الواقع خصيمة اليابان الحقيقية بل كانت فقط ميدان النضال بينها وبين الدول الغربيـة ، وكانت هى الفريسة التى يجرى من أجلها النضال . وكانت الدول الغربية قد بدأ زحفها الاستعمارى على الصين ، وأخذت بمختلف الوسائل تحصل منها تباعاً على حقوق وامتيازات سياسية واقتصادية وإقليمية . وكانت روسـيا التى تسيطر على النصف الشمالى من القارة الأسيوية ، وتشرف على الصين من الشمال ، وتواجه اليابان فى الضفة الأخرى من البحر ، هى أخطر خصوم اليابان فى هـذا النضال الاستعمارى السافر ، وكان زحفها المستمر فى منشوريا فيما يلى كوريا ثم حصولها على ثغر بورت أرثر يزعج اليابان ويثير توجسها . وأخيراً وقع الاشتباك المحتوم بين الدولتين ونشبت بينهما الحرب فى سنة ١٩٠٤ وكانت هذه الحرب الروسية اليابانية بالنسبة لليابان تجربة جديدة ، ففيها تشتبك اليابان لأول مرة فى حرب مع دولة من الدول الأوربية العظمى ، وفيها يخوض الجنس الأصفر أول معركة حقيقية مع الجيش الأبيض . ولـكن الدول الأوربية الـكبرى أبدت يومئذ بخصومتها لروسيا أنهـا لم تقدر خطورة هذا النضال ونتائجه . ومنيت روسيا فى هذه الحرب بسلسلة من الهزائم المؤلمة فى البر والبحر ، واضطرت فى النهاية أن تعقد الصلح مع اليابان (سنة ١٩٠٥) وذلك على أن تنزل لهـا عن ثغر بوت أرثر وسكة حديد منشوريا وكذلك عن النصف الجنوبى لجزيرة سخالين الروسية ، وأن تعترف بكوريا وجنوبى منشوريا منطقة للنفوذ اليابانى . والواقع أنه لم تمض أعوام قلائل حتى أعلنت اليابان ضم كوريا إليها (سنة ١٩١٠) ولم تعترض على ذلك دولة من الدول .

وكان لفوز اليابان فى الحرب الروسية نتائج بعيدة المدى . ومن ذلك التاريخ تأخذ اليابان مكانتها إلى جانب الدول العظمى ، وتتوطد دعائم التوسع اليابانى نحو الغرب والجنوب ، وتشعر الدول العظمى بخطورة المنافسة اليـابانية فى تحقيق المغانم الاستعمارية والاقتصادية فى الصين وفى غربى المحيط الهادئ . ولما نشبت الحرب الـكبرى انضمت اليابان إلى جانب الحلفاء ، وخرجت منها بغنم استعمارى جديد هو المستعمرات الألمانية فى الشرق الأقصى ، وهى قاعدة تسنجتاو فى الصين وجزر كارولين ومارشال وماريان ؛ وبذلك امتد النفوذ اليابانى بعيداً فى قلب المحيط الهادئ .

***

وبينما كانت الصين تخوض حرباً أهلية لا تنقطع ، وأوربا تنحدر رويداً إلى معترك الأزمات الدولية ، كان الاستعمار اليابانى يعد العدة لتحقيق ضربته الشاملة فى شرق آسيا . وتبدأ هذه المرحلة باستيلاء اليابان على منشوريا فى سنة ١٩٣١ وتحويلها إلى دولة صورية باسم « منشوكو » . وكانت روسيا أكثر الدول الأوربية توجساً من هذا التوسع اليابانى فى مناطق تلاصق أملاكها وثغورها فى الشرق الأقصى ، ولكنها آثرت الهدوء والتريث ؛ وأتبعت اليابان استيلاءها لأعلى منشوريا بغزوها الأقاليم الصينية الوسطى . ومنذ سنة ١٩٣٧ تشهر اليابان على الصين حرباً شاملة وتستولى تباعاً على الثغور والأقاليم الصينية الساحلية ، وتتوغل فى قلب الصين شيئاً فشيئاً . وهنا تلقى اليابان القناع نهائيا وتنذر الدول الغربية بأن ترفع يدها عن الصين ، وأنها سوف تقاوم أية محاولة من جانب هذه الدول للحصول على امتيازات إقليمية أو استعمارية فى شرق آسيا . وكانت اليابان تتحدث فى ذلك اليوم باسم الجامعة الأسيوية وشعارها القائم على جعل آسيا للأسيويين ؛ وكان هذا الشعار يجذب فريقاً من الأمة الصينية . ولكن هذا الزعم لم يكن ليحجب الحقيقة السافرة وهى أن الاستعمار اليابانى يحاول أن ينتزع لنفسه صفة شرعية ليست للدول الأوربية . وكانت أوربا تشغل يومئذ بأزماتها الخطيرة ، ولم تستطع الدول العظمى أن تقوم بأى عمل إجماعى ناجع لوقف هذا التحدى ، وقنعت بريطانيا وأمريكا بمعاونة حكومة شونكنج الصينية الوطنية التى انسحبت إلى الداخل على مقاومة الغزو اليابانى ومدها سراً بالمال والسلاح .

ولما نشبت الحرب العالمية الثانية كانت اليابان قد أحرزت فى جولتها الاستعمارية الضخمة نجاحاً باهراً ، وغدت سائر الأقاليم الصينية الساحلية والوسطى مرتعاً خصباً للاستغلال اليابانى ، وغدت الصين أمامها كتلة هامدة ، وانهارت مصالح الدول الغربية . وكانت اليابان ترتبط برباط التحالف مع ألمانيا وإيطاليا بمقتضى الميثاق الثلاثى ، ولكنها لم تدخل الحرب تواً بل لبثت تجد فى الأهبة وترقب الفرصة السانحة ، ولما بلغت الانتصارات الألمانية أوجها فى أوربا قامت بضربتها الغادرة فى بيرل هاربور فى السابع من ديسمبر سنة ١٩٤١ ،

وهكذا نشبت الحرب بينها وبين أمريكا وحليفتها بريطانيا العظمى . ولم تمض أشهر قلائل حتى استطاعت اليابان أن تستولى تباعاً على جزر الفلبين وبلاد الملايو وسومطرة وجاوة وجزائر ملقا وبورنيو وعدد كبير من الجزر المتناثرة فى أنحاء المحيط الهادىء ، واستولت أيضاً على بورما ، وأخذت تهدد الهند البريطانية كما أخذت تهدد استراليا وزيلندة الجديدة فى الجنوب .

وهكذا بلغ الاستعمار اليابانى ذروة ظفره ، وبسطت اليابان سلطانها القوى على مياه المحيط الهادىء حتى المناطق التى تعتبرها كل من أمريكا وبريطانيا داخلة فى نطاق سلامتها ، كما بسطت سلطانها على شرق آسيا كله ، والقارة الجزرية الهندية الكبرى ، وجنوب شرق آسيا ؛ ولاح مدى حين أنه أضحى من الصعب إن لم يكن من المستحيل أن تنزع اليابان هذا التراث الاستعمارى الباذخ .

ولكن الحوادث تطورت بسرعة مدهشة ، فلم تمض ثلاثة أشهر على هزيمة ألمانيا واستسلامها حتى اضطرت اليابان بدورها أن تخر جاثية أمام القوى الهائلة التى حشدت لسحقها ، وأمام فتك القنبلة الذرية المروع ، وأن تذعن للتسليم للأمم المتحدة بلا قيد ولا شرط . وهكذا انهارت قوى العدوان اليابانى فى الشرق فجأة كما انهارت قوى العدوان الألمانى فى الغرب من قبل .

* * *

والآن لنر ماذا يترتب على هذه الهزيمة الغامرة التى منيت بها اليابان وهى فى أوج ظفرها الاستعمارى .

لقد قضى بضربة واحدة على الجهود الجبارة التى بذلها الاستعمار اليابانى مدى نصف قرن فى سبيل التوسع فى مياه المحيط الهادىء وشرق آسيا ، ولن يبقى لليابان سوى الوطن اليابانى المكون من أرخبيل الجزر اليابانية . وهكذا تكون النتيجة الأولى أن تنكمش اليابان فى جزرها القديمة ، وأن تحرم من المواد الأولية والثروات الاستعمارية الوفيرة التى كانت تستخدمها فى إنهاض صناعتها القومية ، وغزو الأسواق الأسيوية ، ومنافسة الدول الغربية فى ميادين الاقتصاد العالمى منافسة قوية مزعجة ، وهو الغزو الاقتصادى الذى كانت تحميه بسلطان الاستعمار السياسى فى المناطق الشاسعة التى تسيطر عليها .

وقد حررت الصين وآسيا الشرقية كلها من كابوس الاستعمار اليابانى ، كما

حررت منه القارة الجزرية الضخمة التى تشمل جزائر الهند الشرقية ، وانهارت سيطرة اليابان على مياه المحيط الهادئ ، وهى التى كانت تمكن لها باحتلال القواعد والجزر المتناثرة فى هـذه المياه حتى استراليا وزيلندة الجديدة . وبذا تعود الحالة فى شرق آسيا وفى جنوبها الشرقى كما كانت عليه منذ نصف قرن أى قبل أن تبدأ اليابان حياة الفتح والتوسع التى جعلتها فى بداية الحرب العالمية الثانية أعظم قوة فى الشرق الأقصى وفى المحيط الهادئ .

وتواجه الصين بعد تحريرها مستقبلا جديداً ، ولكنها تواجه فى نفس الوقت خطر الحرب الأهلية والفوضى. وتلك هى معضلة الصين الكبرى ؛ فالصين ليست أمة موحدة الكلمة ، ولا تمثل حكومة شونكنج التى تتحدث اليوم باسم الصين سوى جزء فقط من الصين الكبرى ، وهنالك مناطق أخرى تستمتع باستقلال محلى وتقوم فيها قوى عسكرية إقطاعية . وأعظم القوى المحلية الحاضرة هو الحزب الشيوعى ؛ ويبسط الشيوعيون حكمهم على مقاطعة ينان وغيرها . فهل تستطيع حكومة شونكنج أن تتغلب على هـذه القوة الخارجة وأن تجمع كلمة الصين فى ظل دولة صينية موحدة ، وحكومة مركزية يخضع لها سائر الوطن الصينى ؟ إن مستقبل الصين الجديد يتوقف على تحقيق هذه الوحدة ؛ فاذا لم توفق الصين إلى تحقيقها انحدرت مرة أخرى إلى غمرة الحرب الأهلية والفوضى .

ومن جهة أخرى فلابد لنا أن نذكر موقف الدول المتحالفة من الصين . فلهذه الدول مصالح اقتصادية واستعمارية قديمة لا بد أن تحسب الصين حسابها . وقد اعترفت الصين بالفعل بمصالح روسيا السوفيتية فى منغوليا الداخلية وفى منشوريا ، كما نزلت لها عن ثغر بورت أرثر . ومن المعقول أن تعامل كل من بريطانيا وأمريكا فيما يتعلق بمصالحها فى الصين مثل هذه المعاملة، فتسترد امتيازاتها والسيطرة الاقتصادية القديمة . ولن تتخذ هذه الامتيازات صورة الاحتلال أو السياسية الأجنبية ، ولكن من الواضح أن الدول الثلاث الكبرى سيكون لها أكبر الأثر فى توجيه الصين الجديدة وفى تنظيمها السياسى والاقتصادى .

وأما جزائر الهند الشرقية (سومطرة وجاوة وجزائر ملقا وبورنيو) تلك القارة الجزرية الغنية التى تملكها هولندة الصغيرة فلم يتضح بعد ما إذا كانت ستعاد إلى الادارة الهولندية . بيد أننا نشك فى أن الدول الكبرى ستقف عند هذا الحل ، وربما وضع نظام جديد للإشراف المشترك على إدارة هذه الجزائر واستثمار

مواردها الغنية خصوصاً بعد ما أصاب هولندة من الضعف والانهيار .
وتسعى فرنسا الآن إلى استرداد الهند الصينية ، ولكن الدوائر المتحالفة تبدى تردداً فى ذلك ، ولا تزال تذكر كيف سلمت فيشى الهند الصينية فى بداية الحرب إلى اليابان ، وكيف اتخذتها اليابان قاعدة للوثوب على بلاد الملايو وجزائر الهند الشرقية . وقد لا تمانع بريطانيا وأمريكا فى النهاية فى أن تسترد فرنسا الاشراف على مستعمرتها السابقة . ولكن هذه الموافقة ربما اقترنت باحتلال أمريكا وبريطانيا لبعض قواعد استراتيجية فى الهند الصينية تكون متممة للقواعد التى تحتلها الدولتان فى البر الصينى ومن جهة فانه يبدو أن فرنسا سوف تواجه مطالب « أنام » القومية فى الحصول على الاستقلال الذاتى .
ويلوح لنا أن هزيمة اليابان سيكون لها أثر عميق فى تطور السياسة البريطانية نحو الهند . ذلك أن بريطانيا تستطيع الآن أن تطمئن الى سلامة الهند وزوال الخطر اليابانى عنها بعد أن فقدت اليابان قواها البحرية والعسكرية وسدت فى وجهها جميع المسالك المؤدية الى الهند . وسيكون فى وسع السياسة البريطانية بعد ذلك ان تقف من أمانى الهند فى الاستقلال الذاتى موقفا أكثر عطفا وسخاء ، وستحصر عناية بريطانيا فى السهر على سلامة الهند من ناحية حدودها الشمالية الغربية ، أعنى من ناحية روسيا . بيد أن الخطر الروسى على الهند لم يبد فى وقت من الأوقات جسيما على نحو ما بدا الخطر اليابانى خلال هذه الحرب ، وقد أشرفت اليابان بعد استيلائها على حدود بورما على حدود الهند البريطانية ذاتها .

* * *

والخلاصة أن القارة الأسيوية سوف تشهد بعد هزيمة اليابان وتحطيم سلطانها الاستعمارى عهداً جديداً . ولا مراء فى أن انهيار الطغيان اليابانى فوز للديمقراطية وقضية الحرية . ولكن يجب ألا ننسى حقيقة العوامل التى قام عليها هذا الصراع وحقيقة النتائج التى سوف يسفر عنها . فقد كانت معركة الشرق الأقصى معركة الاستعمار والنفوذ الكبرى ، وكانت معركة اليابان والدول الغربية ، أو بعبارة أخرى معركة الجنس الأصفر والجنس الأبيض ، على اجتناء السيادة والمغانم الاستعمارية . وقد فازت الدول الغربية بعد صراع مرير هائل بأن تستخلص تراثها الاستعمارى من قبضة اليابان وأن تحطم منافستها الخطرة ، وأن تردها الى عزلتها

القديمة فى داخل جزرها الضيقة . وقد كانت الصين والمحيط الهادئ ميدان هذه المعركة الكبرى . فأما الصين فقد فازت بنوع من التحرير لازال عليها أن توطد دعائمه . وقد حققت روسيا أمنيتها القديمة فى توطيد سلطانها الاستعمارى فى شمال شرق آسيا وفى الحصول على منافذ بحرية دافئة فى مياه المحيط الهادئ وفى القضاء على منافسة اليابان الخطرة فى تلك المنطقة . وحققت أمريكا حلمها العظيم فى الاستئثار بالسلطان فى شرق المحيط الهادئ وأواسطه وتحويل هذا البسيط المائى الشاسع إلى منطقة سلامة قومية ، وسحق الخطر اليابانى الذى كان يزعجها زحفه وتقدمه . وأمنت بريطانيا شر الخطر اليابانى على الهند واستراليا وزيلندة الجديدة ، وتخلصت الى أمد بعيد من منافسة اليابان الاقتصادية فى أسواق الشرق الأقصى .

وهكذا يقوم سلطان الدول الغربية الكبرى ونفوذها فى آسيا وفى المحيط الهادئ على أنقاض الاستعمار اليابانى الذاهب . وعلى ضوء هذا التبدل فى الأوضاع يجب أن يفهم تحرير القارة الأسيوية . على أنه مهما كانت قيمة هذا التحرير النسبى ، ومهما كان يشوبه من معنى السيادة والنفوذ ، فانه يجب أن يعتبر بالنسبة للصين وبالنسبة للقارة الأسيوية خطوة عظيمة الى الأمام .

محمد عبد الله عنان

عالم الطفولة

Mein Kind, wir waren Kinder.
H. Heine

عادت طيارات الأطفال إلى مالكها الجوى بعد ست سنوات من حرب البر والبحر والجو. وها هى ذى ترتفع فى كل ساعات النهار من شاطئ البحر الدانى إلى علو منزلى. وقد تعلو عنه وعن أسطح المنازل المجاورة، يتبعها ناظرى، ويحلق معها شعورى، حتى لأنسى الحاضر والماضى القريب وأعود بالذكرى إلى سنتى العاشرة وما قبلها أو بعدها بقليل، وأنا ممسك بالعنان الرفيع للطيارة المحلقة كالجواد الطائر. أتركه لها رويداً حتى لا تنطح فجأة برأسها وتختنق بذيلها إذا التف حول رقبتها. ولكنها تطلب المزيد من الحرية والارتفاع، وأنا أرخى لها العنان ما بقى معى خيط. ثم لا يبقى من الخيط إلا طرف طليق ألفه حول ذراعى كآخر قيد يحتفظ لى بطيارتى فى كبد السماء. هو صك الألفة بين صديقتى الطائرة، وبين قلبى الوامق ونظرى المعجب.

وقد أرسل لصديقتى الهوائية رسالة الهوى، وعربون المحبة، خاتماً ربط به منديل يحمله الهواء منزلقاً على طول الخيط، حتى يوصله إلى قلب طيارتى، حيث تجتمع الخيوط الثلاثة التى تزنها فى الهواء، وتتحكم بحياتها فى الفضاء.

لم تكن الطيارة فى طيرانها إلا الحلقة الأخيرة من سلسلة نشاط وحركة تبدأ صباحاً بزيارة حانوت العطار لشراء الخيط — أو النير كما كان يسمى — والورق الملون، ومسحوق الرسراس الذى نصنع منه صمغاً خاصاً، ثم بالبحث عن عصا من البوص الجيد عند صانع جوز التمباك.

فاذا عدت إلى المنزل، جلست فى ركن من « الفسحة » خال من الأثاث، ثم بدأت فى تشطير البوصة طولاً إلى ثلاث عصى، أضعها متعارضة وأربطها من وسطها فتصبح أقطاراً لشكل سداسى متساوى الأضلاع. وأصل بين أطرافها بخيط يحول المسدس الرياضى إلى مسدس واقعى، هو هيكل الطيارة.

وأخلط مسحوق الرسراس بالماء لأكون عجينة صفراء لزجة ، وأقص أوراقي الملونة إلى مثلثات ألصقها بالهيكل وأنا ألاحظ المقابلة بين ألوان هذه المثلثات ، وهي محدودة لا تتعدى الأخضر والأصفر والوردى والأحمر .

وأدور قصاصة فيما بقي من الورق أحوله شرائط أو غدائر ، أعقصها حول طول من الخيط فتكون ذيل الطيارة ، وهو على شكل « واى » طويل الساق . وأصل طرفى الواى بضلع من أضلاع الهيكل .

ثم أنتقل من هذه الهندسة المسطحة إلى هندسة فراغية ، حين أنشئ هرما خياليًا متساوى الأضلاع ، بواسطة ثلاثة خيوط ، أحدها يربط فى مركز الطيارة ، ويربط الآخران بطرفى الضلع المقابل لضلع الذيل . وهـذا الهرم الخيالى هو « الميزان » الذى يتوقف عليه ثبات الطيارة فى الجو من جهة ، ومقدرتها من جهة أخرى على تلقى تيار الهواء الأفقى بانحراف يكون من أثره أن تأخـذ فى الارتفاع . فهو أهم عمل هندسى ميكانيكى فى وضع طيارتى ، وآخرها .

تم إذاً إعداد الطيـارة فى هدوء وعلى انفراد ، لا يقطع علىَّ عملى إلا أولئك الآدميون فى إصرارهم على الحاجات المادية لطفلهم ، فهم يدعونه إلى الغداء بالرفق أول الأمر ، وبالعنف فى آخره .

وأى طعم للأكل فى ذلك اليوم المجيد ، ولم يعد الطفل الصناع من سكان هـذا الكوكب الأرضى ، إنما هو روح حائم حول طيارته ، متعلق بتاجها الملون وغدائرها التى سوف يعبث النسـيم بها فيثير منها خشخشة ناعمة تخفت رويداً كلما ارتفعت الطيارة فى الجو .

وأنزل إلى الأرض الفضـاء خلف المنزل لأشرع فى التحليق ، فروحى هو الطائر مع طيارتى . أما ذلك الجسم الصغير الباقى على الأرض فان هو إلا ثقل فى آخر الخيط ، «أنجر» يربط السفينة المحلقة فى أعلى عليين بقرار هذا البحر الشفاف .

قد يكون الهواء ريحاً على سطح الأرض ، فلا أحتاج إلى أكثر من رفع الطيارة فوق رأسى ممسكاً بميزانها ، فيحملها الريح عنى . وقد يكون نسيما ناعساً فأضع الطيـارة بحساب على الأرض ، وأبتعد عنها تاركاً لها طولا كافياً من الخيط ، ثم أجرى وأنا أسحبها فترتفع إلى درجة كافية لتلقى رياح الطبقات العليا من الجو .

الطبقات العليا من جو الطفولة ، هى حيث ترق الحمائم واليمام ، وإلى ما فوق

ذلك حيث يرى الإوز العراقى — كما كنا نعرفه ، وهو بط الصيادين — سائراً سيره فى أقواس وخطوط منكسرة ليتم رحلة الشتاء أو الصيف . الطبقات العليا التى تهبط منها أغاريد الكروان فى الليالى ذات الكواكب والنجوم الزاهرة .

أطباق الجو العليا يهبط منها دهنش وصاحبته الجنية يحملان الأميرة بدور بنت الملك الغيور إلى قبو قمر الزمان ابن الملك شهرمان .

ما برحت إلى اليوم — وقد طويت ورائى مرحلة العمر الوسطى — أسمع حفيف أجنحة دهنش والجنية ، بالوضوح الذى كنت أسمع به حفيف طيارتى ذات الألوان الزاهية ، وخشخشة ذيلها تتطاير غدائره فى أشعة الشمس كألسنة ملتهبة .

فكل شىء فى عالم الطفولة وحدة كاملة ، صورة من وحدة الوجود ، لافرق بين حقائقه والأحلام .

هو من عالم الطفولة ذلك الصندوق الخشبى الملون ، يحمله مارد زرى الهيئة ، أغبر الملامح ، ينفخ فى صوره فنجرى إلى صندوقه وقد وضعه عن ظهره أمام المنزل ، ودعانا إلى الجلوس على دكة متهالكة أمام عيون بلورية فى جانب من الصندوق . ثم يغطينا بخرقة بالية ، لا يمكن إلا أن تكون قطعة من بساط سليمان . فما إن نجوس بأبصارنا خلال العيون البلورية حتى ننتقل إلى عالم غير عالمنا ، تتحرك فى عرصاته صور عزيزة ويونس وأبى زيد الهلالى والزير سالم وابن ذى يزن ، وغيرهم من الأبطال الذين لايتطرق إلينا الشك لحظة فى وجودهم . وينتهى العرض ببضع بكرات مشدودة إلى خيط ، يديرها الساحر بيده فتجرى وسط ميدان فسيح « بكركبة » كالرعد ، وتمثل آخر العجائب ، عجيبة العصور الحديثة : الوابور . رحلة بدأناها فوق بساط الريح وختمناها على متن البخار .

من عالم الطفولة قصص الجدة والخالة إلى جانب المدفأة فى ليالى الشتاء . رأيت فيها الأميرات والصعاليك ، والأبطال والسلاطين فى أسمالهم وحللهم ، بين جدران قصورهم ، أو فى مسالك تيههم الطويل . رأيت الجن الطائر فى سماواته ، والجن المختفى فى كهوفه يشق جوانب الجبال وسطح الأرض ، كما يشق السابح صفحة الماء . سمعت أنين العاشقين فرق السحر بينهم فراقاً فيه قسوة الجحيم وعذاب الطنطال . ولا أنسى من بين هؤلاء اثنين أحالهما المجوسى زوجاً من الطيور ، وحبسهما فى قفصين متواجهين لا يتلامسان . يرنو كلاهما إلى الآخر فى حسرة من وراء قضبان سجن مزدوج : سجن القفص ، وحبس الجسم المريش الغريب .

أحرار هم الأطفال . . . والمتصوفون . فاذا كان المتصوف لا يملك إطلاق روحه الحبيس فى مادة الجسد إلا بجهد العري والجوع والورع والتأمل ، فان الطفل يتنقل بين عالمه المادى والروحى بسهولة المارد يخترق الجدار ، ويرتفع عن مادته فى يسر الطيارة الورق يحملها النسيم إلى علٍ . وما الصلة بين الطفل فى جسده وفى روحه بأكثر من الخيط الرفيع يصل بين يده الصغيرة وألعوبته الجميلة فى أطباق الجو .

يرى الطفل بروحه أكثر مما ينظر بعينيه ، فيضفى الجمال على كل الأشياء وكل المخلوقات . فما هى تلك الطيارة سوى أوراق ملونة رخيصة ألصقت بصمغ قذر إلى قطع من البوص والخيط ! وهذه الأناسى السوقية فى الموالد والأعياد تتسربل فى أقمشة قذرة مهلهلة ، وتصطبغ بأدهان فاقعة ، زينتها الصفيح وأزرار الصدف وشعر الدواب : ملك الزمان يمتطى جواده الأشهب — خلف حصان جرار ! وأبطال البادية يداورون ويحاورون ، ضاربين بسيوفهم البتارة دروعاً كأنها قطع من الليل البهيم — أو هى قعر صفيحة وقضبان خردة سواها السمكرى فى رمضان ؟

وهذا اللاعب الاسكندرانى فى سراويله السوداء وقميصه المزركش ومنطقته الكشمير ، يرفع على طرف قدمه العارية مشعلا ، ويحجل بقدمه الاخرى ، ثم هو يركل المشعل إلى أعلى ليتلقاه على أرنبة أنفه ، أو فوق يافوخه . وحوله رفقاؤه يقرعون طبولهم المغلولة إلى أعناقهم .

صفيح فى صفيح ، وورق ملون ، وطراطير حمراء وصفراء ، وقطع من الزجاج والمرايا ، وأسمال قذرة تتفرك ، وأقدام حافية ، ورجال موشومون .

صفيح فوانيس رمضان ذات الزجاج الملون ، ملايات بيضاء تغطى قضباناً حديدية ، مصابيح الذكر الكبيرة تلتف حولها العامة فى ليالى الحضرة . وسكر مغلى رصع بقطع من الملبس والنقل هذا « العلى لوز » .

وما هو الا راجوز البلدى ؟ خشب ملونة مزوقة ، رسمت فى أعلاها وجوه ادميين أو قردة ، وألبست خرقاً جمعت من قمامة . يحركها مواطن عزبة الصفيح وهو مختبىء فى جوسق من الخيش المرصع بأنصاف الملاليم ، وعقود البكر والودع . يتكلم بصوت الببغاء ، فتغلبه حشرجة شعب قرحها الحشيش والتمباك .

والأراجوز من بنى عمومة عرائس المولد يبشرتها السكرية وغلالاتها ذات

الورق المفضض ، وشعرها الفاحم تعلوه المراوح تتلألأ فى ضوء المصابيح الغازية منتظمة على مدرجاتها الخشبية فى صفوف « البالـّـو » أو طوابير الاستعراض ، تحف بها الخيل والغزلان والسباع والهررة حمراء ووردية وبيضاء .

أسرة واحدة تلك الدمى من حلوى وخشب وجص وقش ، وصور صندوق الدنيا ، ومُلاعب القرود وأتانه ، والحاوى وثعابينه ، والاسكندرانى ونقاريته ، وضارب الدف ، والموقع على الناى والأرغول .

أسرة واحدة وعالم واحد ، الموالد وحضرة الأولياء ، وأسراب وَحَوِى ، وفرسان الأراجيح ، وبائعات على لوز ، تجسدت فيها قصص الشاعر بربابته ، والشاعر بغير ربابته فى أحياء قاهرة المعز والصالح وأتابك .

أسرة طفولتنا ودنيا خيالنا . ظلال ملونة تلقيها أحلامنا فوق صفحة يقظتنا البيضاء . فاذا أطفأ المعلم مصباحه تبددت الخيالات ، وفركنا أعيننا لنصحو الصحوة الأخيرة .

صحوتها ذات يوم أذكره جيداً ، عند واحدة من قريباتنا ، بمحضر نسوة تلقيننى كما يتلقى كهنة التبت عظيمهم الطفل دلاى لاما .

فقد خرج رجل يضع فى كفى فنجاناً يحتوى على قليل من القهوة ، وينضح جبينى بالزيت ، ويغطى رأسى بملاءة ، وهو يأمرنى أن أديم النظر فى قاع الفنجان .

عرفت أن الرجل فاتح « المندل » ولا يفتح إلا بين يدى صبى دون البلوغ . وكم سمعت بالمندل وكان سحراً من أسحار طفولتى ، وأملا بعيد المنال من آمالى . متى يفتح المندل لعينى فأرى الخدام فى قاع الفنجان ، وآمرها فتكنس وترش ، ثم يجىء السلطان ووزراؤه فأسألهم أين اختفى فلان بن فلانة ، ومن أى طريق نتعقب حرامى الحلة والحلى .

جعل الرجل يتلو تعاويذه على رأسى ، لغة تلقيتها عن دهنش وفصيلته ، فيها وسوسة حلى بغلة العشر ، وفحيح ذى العيون المشقوقة بالطول ، والرجل المسلوخة .

أنظر وأدقق النظر لعلى أبصر ما توقعتـه طول طفولتى ، على أن صفحة القهوة لم تتحول عن السواد . ولـكن . . . ! ما هذا البصيص فى قاع الفنجان ؟ أيتسع فأرى الساحة والخدام ، والسلاطين والأعوان ؟

وا أسفا ! لم يكن سوى انعكاس ضوء خافت نفذ من فرجة فى الغطاء الذى أسجاه فاتح المندل فوق رأسى وفوق ذراعى الممدودة بالفنجان .

تعب الساحر وهو يسألنى : « هل حضروا » وأنا أجيب بالنفى . يقيناً أخفق الرجل ، أو أخفق الصبى .

فكشف الغطاء عنى واعتذر للسيدات ملقياً علىَّ تبعة خيبته :

— الولد أدرك !

احمرت وجنتا الصبى المسكين خجلاً ، إذ فهم ما يعنيه الساحر السوقى بهذه الكلمة العامية .

ولكنى أفهمها اليوم بمعناها الفصيح . فقد بلغ الصبى مرتبة الادراك . وكان المندل الذى لم يفتح عليه هو آخر باب من أبواب عالم أُغلق وراءه ، هو عالم الطفولة وفردوس أحلامها .

***

ففى هذه اللحظات التى أقضيها ساهماً ساكناً أمام البحر ، أُجرى يدى على سبحة الذكريات ، وأمضى ببصرى عبر هذا البحر إلى بحار وأراضين بعيدة ، عرفت أنى رحلت أجمل رحلاتى ، وتزودت فيها بأقدس زادى ، حين اعترضت أفقى طيارة حمراء صفراء وردية خضراء ، يطيرها صنو لى ، تفرق بينى وبينه خطوات معدودات فى الفضاء ، وتفصلنى عنه أعوام وأعوام لا أود لها عداً .

Mein Kind, wir waren Kinder,
Zwei Kinder, klein und froh [1].

حسين فوزى

---

(١) هذا الشعر من قصيدة للشاعر الألمانى « هنريش هينى » يقول فيه لأخته « يا أخية ! لقد نعمنا بالصبا ، حين كنا طفلين مرحين » .

القنبلة الذرية وانعدام الذرة

فى جزء من الكرة الأرضية حيث لا يعلم الناس شيئاً عن الذرة مات وجرح ربع مليون من البشر ، فى بلدة لا يتجاوز مقدار أهاليها ذلك بأكثر من ألفين ، وهكذا لم يبق من كل مائة من السكان إلا واحد ، وكأنما بقى ليحدث العالم عن هول ما حدث .

تحطمت قنبلة ذرية فى هيروشيما باليابان ، قالوا إن وزنها خمسمائة جرام ، وإنها بحجم البيضة ، وذكروا أن ما انعدم من كتلتها واحد من مائة أى خمسة جرامات وقال آخرون بل هو واحد من ألف أى نصف جرام ! !

ويتلخص الحادث فى أن المادة التى انعدمت هى فى حدود الجرام أو الاثنين ، بحيث إن ذلك الجرام لو انعدم بالطريقة ذاتها فى مدينـة مكتظة بالسكان كلندن لبلغ تعداد الضحايا خمسة ملايين ، وبعبارة أخرى لو أنه انعدم هذا الجرام من المادة كلية أى ما يعدل حبة من الفول فى جو مدينة القاهرة لقضى نهائياً عليها ، بحيث يتعذر على مرتاد ذلك الجانب من ضفاف النيل أن يدرك أنه كان يَضُم مدينة عظيمة عاصرت التاريخ من نيف وألف عام .

ولعل هذا يحتاج إلى كثير من التأمل ، على أنى أسأل القارئ أن يُبعد عن ذهنه أن ثمة أجزاء مادية خرجت من حبة الفول الصغيرة فتناثرت بقوة أو انفجرت كما تنفجر المفرقعات . إن أطنانا من المواد المتفجرة لو قدر أن تُلقى فى قلب العاصمة لا تزيل بفعلها الجامعة المصرية بمبانيها ولا تهدم عمارة الأزهر العظيمة ، ولا تذهب بحدائق الحيوان الفسيحة وأهرام الجيزة المكين .

أى جُسَيْمات تلك التى تخرج وتتناثر من حبة الفول فى قلب القاهرة فتدك أركان ذلك الطود الشامخ منها وتزيل مسجدى الرفاعى والسلطان حسن بل تلك القلعة الشاهقة المميزة للعاصمة الجميلة ! !

إن جراماً واحداً من المادة مهما بلغ من تناثر بالمعنى المألوف لا يمكن أن يحدث تلفاً بالغاً فى نافذة واحدة من بيوت مدينتنا الفسيحة .

صحيح أننا سندرك أنه حدث نوع من التناثر الضوئى أو الفوتونى ولكنه يختلف عن التناثر بالمعنى الذى نفهمه، ولا بد لى إذن أن أحدثك عن الذرة وعن تهدمها أو انعدامها وتحولها إلى طاقة لها من الأثر ما يتعدى كل خيال ومن العظمة ما يرتد عندها البصر.

ولا أكتمك أنى فى حيرة كيف، وفى صحائف معدودات، يتسنى لى أن أطلعك على أعظم تراث فى العلوم، إلا أنى سأحاول جاهداً أن أعطيك فى ساعة من الزمن خلاصة لما عرفناه فى عشرين من السنين.

***

ولنختصر إذن الحديث فاذكر القارئ فى بادئ الأمر بالفوارق المعروفة بين مايسميه العلماء جزيئاً ومايسمونه ذرة، فجميع مركبات المادة فى الكون، وتعد بعشرات الألوف كالماء والسكر، تتكون كلها من جزيئات المواد المختلفة، وتتكون هذه الجزيئات من الذرات. فجزئ الماء مثلا يتكون من ذرة واحدة من الأكسجين وذرتين من الهيدروجين.

على أن للكيمياء القوة فى فصل وتحويل هذه المركبات، ولكننا لا نستطيع بالتفاعلات الكيميائية وحدها تحويل ذرة العنصر الواحد إلى ذرة عنصر آخر، ومن هنا عرف الكيميائيون عدد عناصر الكون، وإذا بها ٩٣ عنصراً، أخفها الهيدروجين وأثقلها اليورانيوم، وهو العنصر التى سمعت باستخدامه فى القنبلة الذرية.

وهكذا ظلت كل ذرة وحدة مقفلة يستحيل حتى عهد قريب على العلماء تجزئتها، لذلك سموها «أتوما» (atome) أى الجزء الذى لا يتجزأ.

***

ترى متى تغير هذا الاعتقاد؟ ومتى وصلتنا أول رسالة من داخل الذرة؟ ومن كان له الفضل فى ذلك؟

إنى أجيبك بما يوافقنى عليه العلماء المحدثون فأقول: هناك قريبا من كاتدرائية نتردام، هناك فى الحى اللاتينى فى قلب باريس وفى سنة ١٨٩٦ أى منذ نصف قرن، حيث كانت العربة ما زالت تقوم مقام السيارة، وحيث كان

الناس على خُلق أعظم من اليوم ، هناك شيخ سيذكره التاريخ ، ويُسجل له قسطاً وافراً في معرفتنا بالذرة ، هذا الشيخ هو « بكارل » ، قد طواه الزمن فأصبح كغيره من العلماء في عداد الموتى . ولعمرى إنه عند ما يصبح للذرة شأن في حياتنا ستحل صورة « بكارل » في كل متاحف العالم وهياكله المقدسة كمؤسس أول للتهدم الذرى .

وضع « بكارل » قطعة من اليورانيوم على اللوح الفوتوغرافى الملفوف بالورق الأسود ، فانطبعت صورة القطعة على اللوح من تلقاء ذاتها ، فأدرك « بكارل » أن اليورانيوم يشع ، وأن المادة تتحول إلى طاقة أى إشعاع .

يُرسل اليورانيوم إشعاعه من قبل وجود الانسان ، فهو أقدم منا بملايين السنين ، ولكن « بكارل » كان أول من لفت النظر إلى إشعاعه .

أحدث ذلك الكشف وما تبعه من أعمال مدام كيرى المعروفة بكشفها للراديوم ، وهو مادة أكثر إشعاعاً من اليورانيوم ، نقول أحدث هزة عنيفة للبشر ، هزة تفوق عندى تلك التى صادفها الانسان عند ما لاحظ « فراداى » حركة الابرة المغناطيسية قريباً من سلك يمر به تيار كهربائى ، تلك الملاحظة التى قال عنها لزوجته يوم عيد الميلاد أنها شىء جديد للعالم . لم يخطىء « فراداى » التعبير فكلنا نعلم بقية القصة الرائعة التى نتجت عن ملاحظته ، فقد سار الترام يخترق المدن ، وتحرك المصعد يعلو العمارات ، ودار المحرك والمولد ، بل لقد نشأت كل الصناعات الحديثة .

أما ما قد يتم نتيجة لملاحظة « بكارل » ودراسة « كيرى » فلا يعلم أحد منا مداه فى مستقبل البشر .

وهكذا بينما تنظر للمادة كأنها جامدة لا حراك فيها لمس العلماء فيها حركة دائمة ، ولاحظوا أن من بينها ما يطارد جسيمات للخارج . واتسع البحث العلمى فى هذا الصدد ، وباتت الجامعات تنتظر اليوم الذى يسيطر فيه الانسان على هذا النشاط الذرى فيُحدثه متى شاء ويستخدمه فيما يريد .

***

طفرت الفيزياء بعد ذلك طفرات واسعة ، وأيقن العلماء أن الذرة على صغرها تتكون من نواة وسطى كالشمس مثلا يدور حولها عدد من الجسيمات الصغيرة

يسمونها كهارب أو « ألـكترونات » . ويطول بنا الحديث والشرح إذا أردنا أن نوضح للقارئ لماذا افترض « رذرفورد » من أساتذة جامعة كمبردج النظام الشمسى للمادة . وعنده تتكون ذرة الهيدروجين مثلا من جسيم واحد فى الوسط يسمونه « بروتونا » وشحنته الـكهربائية موجبة ، يدور حوله « ألـكترون » واحد كما يدور القمر حول الأرض ، بينما يدور فى ذرة الراديوم ٨٨ « ألـكترونا » وفى ذرة اليورانيوم ٩٣ ، بمعنى أن الذرات المختلفة تـكون مجموعات شمسية مختلفة .

ولا أستطيع أن أترك هذا العرض دون أن أدلك على أعظم نجاح ناله عالم معاصر ، أتى ذكره فى أنباء القنبلة الذرية ، وهو ما كشفه « نايلز بوهر » العالم الدانيماركى فى سنة ١٩١٣ ، عندما فسر الإشعاع الضوئى بأنه وثبة للالـكترون من مدار بعيد فى النواة إلى مدار أقرب منه ، وجمع فى هذا التفسير بين نظرية الـكمّ المعروفة للعالم الـكبير « بلانك » ، وبين نظام خطوط الطيف المعروفة للهيدروجين وغيره من العناصر . وهكذا باتت الذرة شيئاً معروفاً تُقرن الدراسات الطيفيَّة المتعلقة بها بحركة الجسيمات فى داخلها .

تتابعت جهود العلماء منذ « بكارل » و « كيرى » ونظروا للمادة طاقة وللطاقة مادة ، وحاول بعضهم الوصول إلى تحول أحدهما للآخر وحسب بعضهم الطاقة الناتجة من هذا التحول ، حتى إن « أينشتاين » أعطى المعادلة التى يتم بمقتضاها هذا التحول ، فقرر أن كتلة من المادة مقدارها « ك » تتحول إلى طاقة مقدارها ك ع^{2} حيث ع هى سرعة الضوء ، ومن هذه المعادلة يتضح مقدار الطاقة العظيمة التى يمكننا أن نحصل عليها من قليل من المادة .

وعكف عدد كبير من العلماء على دراسة الجسيمات التى تتكون منها الذرة ، بل الجسيمات التى تتـكون منها نواتها الوسطى ، وإنه لا يكفى عشرون مقالا ولا مائة لوصف المناسبات التى اكتشفت فيها هذه الجسيمات أو لدراستها ، أو لدراسة الألـكترونات التى تدور فى أفلاكها ، أو لدراسة نوع هذه الأفلاك بالرجوع إلى الميكانيكا الموجية ، لمؤسسها « لويس دى بروى » الحائز على جائزة نوبل وأستاذ السوربون . ولـكننى أقتصر فى مقال اليوم على تعداد أسماء هذه الجسيمات ، لحاجتى إليها فى وصف عملية التفتت الذرى وعلاقتها بالقنبلة الذرية ، وهذه الجسيمات هى « الألـكترون » وشحنته كما ذكرنا سالبة ، وهو من

المسافرين حول النواة . والبروتون وهو نواة الهيدروجين وشحنته موجبة وهو من سكان النواة ذاتها فى جميع العناصر . والنيترون وكتلته قدر كتلة البروتون وليس له شحنة كهربائية ، وهو من سكان النواة أيضاً . ويوجد غير هذه الجسيمات « البوزيتون » ويندر وجوده فى المواد المختلفة وشحنته موجبة ، وقد كشفه « أندرسون » بأمريكا فى الأشعة المسماة الأشعة الكونية . كما نعرف اليوم «الفوتون» وهو وحدة الضوء ويظهر أنه اتحاد « للألكترون » مع « البوزيتون » ، كما يتحدثون عن جسيم يسمونه « النيترينو » ، ومعارفنا عن كتلته أو صفاته الفيزيائية قليلة ، وهو على حد علمنا شخصية ما زالت فرضية .

وإنى أكتفى بذلك فى ذكر الجسيمات ، ولكى يعلم القارئ ما هى عليه من الضآلة أطلب إليه أن يتصور إحدى هذه الذرات ، التى أسلفنا أنها مكونة من نواة وسطى كالشمس يدور حولها وبعيداً جداً عنها عدد كبير من الألكترونات ، ويتصور أنه أمكننا أن نضع هذه المجموعات الشمسية على المائدة ، وأخذنا نصُفّ جوارها ذرات أخرى أى مجموعات شمسية مماثلة ، فانه يلزمنا عشرة ملايين من هذه المجموعات الشمسية أو الذرات المتجاورة لكى نكون قد شغلنا من هذه المائدة ملليمتراً واحداً فى الطول .

ثم بعد ذلك أود مخلصاً أن تتصور معى أن الألكترون وأنداده البوزيتون والبروتون وغيرها باتت شخصيات يدرسها العلماء ، ويحضرونها بالعدد الذى يرغبونه ، ويقذفونها بالسرعة التى يريدونها ، بل يسجلون مساراتها بآلة التصوير على اللوح الفوتوغرافى (وذلك بجهاز غرفة ولسون) ، وأكثر من هذا أنهم استخدموا لنا من الأجهزة ما يمكننا من سماع صوت معين عند ما يمر جسيم واحد « ألكترون » مثلا أو « بوزيتون » من هذه الجسيمات .

ولعلك تعجب معى إذن أن نرى أن الكون المكون من مئات الألوف من المركبات يختصر فى ٩٣ عنصراً ، وهذه العناصر ترجع إلى جسيمات ستة مثلا ، بل إن بعضهم يعتقدها أقل من ذلك عدداً باعتبار إمكان تحول وإدماج بعضها فى بعض ؛ ولقد دلت التجارب أنه لو قذفنا النواة باحدى هذه الجسيمات ، ولتكن القذيفة بروتونا أو نيترونا ، وتمكنا من إخراج إحدى الجسيمات المكونة للنواة إلى الخارج ، أو تمكنا من إضافة جسيم جديد إليها بحيث

يستقر فيها ، فأننا نكون قد حولنا ذرة هذا العنصر إلى ذرة عنصر آخر ، وهذا ما أحدثه العلماء .

إن الفيزيائيين المحدثين أكثر حظاً وسعادة من سلفهم كيميائي القرون الوسطى (les Alchimistes) ، وأمثالهم فى مصر كثيرون ، من أولئك الذين يطلبون تحويل الرصاص إلى ذهب ، ذلك بأن المحدثين استطاعوا تحويل العناصر بعضها إلى بعض ، واستطاعوا أكثر من ذلك إيجاد عناصر لها أعمار معينة لم تكن موجودة وليست موجودة عندنا فى جدول العناصر ، ولكنهم استطاعوا كل ذلك بوسائل لا تخطر على بال هذا الجيش من غواة الكيمياء القديمة .

صحيح أننا نستطيع اليوم أن نحصل ، ولو بمقادير قليلة ، على الفوسفور من الكبريت بوسيلة معينة ، أو نحصل على الفوسفور ذاته من الألمونيوم بوسيلة أخرى كما فعلت « إيرين كيرى » ابنة مدام « كيرى » وقرينها « جوليو » ، ولكن وسائل الحصول اليوم ترجع إلى تحطيم لنواة ذرة الكبريت ، وهو ما لم يحاوله الأقدمون .

* * *

ولنستعرض الآن هذه الناحية من العلم التجريبى الخاصة بضرب النواة وتعديلها ، وذلك بجسيمات المواد المشعة ، بل هذه الناحية الخاصة بإيجاد عناصر مشعة جديدة ، وهى البحوث التى أدت إلى عمل القنبلة الذرية . هذه البحوث الخاصة بالتهدم الذرى ستؤدى بنا أيضاً إلى إيجاد نوع من المدنية يختلف كل الاختلاف عن المدنية التى عهدناها . وإنى لأعتمد الآن بعد الذى أسلفت على معرفة القارئ لبعض الأسس العلمية الكبرى ومعرفته أن من بين المواد ما يشع من تلقاء ذاته ، وأن للذرة تركيباً حبيبياً فى حركة دائمة ، فلها نواة وسطى مركبة من جسيمات عديدة ومتباينة ، وبدور بعيداً عن هذه النواة الكترونات فى مدارات مختلفة ، وهذه تدور حول نفسها .

* * *

يعتقد فيزيائيو هذا العصر أن النواة تتركب من بروتونات موجبة الشحنة ونترونات لا شحنة لها ، بحيث إننا لو تمكنا من زيادة عدد البروتونات فى نواة

معينة لحصلنا على نواة ذات كهربائية عالية ، وبالعكس إذا تمكنا من إضافة نترونات إلى النواة فأننا نزيد فى كتلة هذه النواة ، دون أن نزيد فى شحنتها الكهربائية ، كذلك يجوز زيادة كتلة النواة وشحنتها فى آن واحد .

ولأسباب لا نعرفها حتى اليوم يتوقف اتزان الذرة أو ثبات نواتها دون تهدم فيها على نسبة عدد نتروناتها إلى بروتوناتها .

وقد لوحظ تساويهما فى نواة العناصر الخفيفة . أما فى العناصر الثقيلة فتزيد النترونات عن البروتونات ، حتى إذا ما بلغت النسبة ثلاثة إلى اثنين لوحظ أن للعناصر صفات الإشعاع أى أنها تتهدم من تلقاء ذاتها . ويلاحظ الشىء ذاته فى العناصر التى لها نشاط إشعاعى متعمد أى صناعى ، وسنأتى على ذكر هذه العناصر .

وعلى ذلك يُعتبر التمكن من زيادة عدد بروتونات أو نترونات النواة أو خفضها حادثاً له أهميته . ولنفرض أننا أردنا القيام بهذه العملية ، وأن لدينا الوسائل الفيزيائية للحصول على قذائف بروتونية لقذف النواة . هنا نعود بخيال القارئ إلى الذرة وصغر نواتها بالنسبة للحيز الكبير الذى تشغله هى بما يُحيطها من كهارب ، ليعلم أن ضرب النواة أمر عسير .

وقد دلت التجارب كما أثبت الحساب أنه لا بد من ضرب مليون من البروتونات فى المادة لكى يستقر واحد منها فقط فى النواة .

ولعل القارئ يشعر معى بصعوبة مثل هذه العملية بل بصعوبة العمل فى كل هذه البحوث التى تستلزم :

أولا — وسيلة للحصول على القذائف بروتونات كانت أو غيرها ، تُستخدم فى قذف النواة .

ثانياً — إمكان قذف هذه الجسيمات المتناهية فى الصغر ، وهى من الضآلة بحيث إن النسبة بين كتلتها وكتلة حبة من الفول كالنسبة بين هذه الحبة والكرة الأرضية التى نعيش عليها .

ثالثاً — طريقة لوضع المادة المراد قذف نواتها .

رابعاً — اختراع الأجهزة التى تجعلنا نتعرف على ما حدث فى هذه النواة المتناهية فى الصغر . وإلى القارئ أمثلة مما نجح فيه العلماء .

* * *

استخدم « رذرفورد » منذ سنة ١٩١٦ جزءاً من أشعة الراديوم كقذائف للنواة . ولقد كان معلوماً فى ذلك الوقت أن قطعة من الراديوم تخرج منها جسيمات يسمونها « ألفا » هى نواة غاز الهيليوم ، وأخرى اسمها « بيتا » هى سيل من الألكترونات ، وثالثة « جما » هى إشعاع قصير الموجة . وقد استخدم « رذرفورد » الجسيمات « ألفا » ليقذف بها نواة المواد المختلفة ، ونجح فى تحويل الأزوت إلى أوكسيجين مثلا ، وفى تجارب أخرى لرذرفورد ضرب الألمونيوم بجسيمات « ألفا » فتحول جزء منه إلى سليسيوم وخرج من المجموعة بروتونات سريعة .

وبغض النظر عن أعمال « رذرفورد » فليس المجال هنا مجال ذكر كل التحولات التى تحدث للألمونيوم ، فإننا إذا قذفناه بنترونات تحول الألمونيوم إلى ملح الطعام مع خروج جسيمات ألكترونية وظهور إشعاع « جما » الخطير . وهذا ما فعله « فرمى » فى إيطاليا ، وقد جاء ذكر هذا العالم كأحد مكتشفى القنبلة الذرية ، وقد حضرت عليه شخصياً عند ما نزح إلى السوربون يحاضر علماءها عن بحوثه فى سنة ١٩٣٤ .

على أنى أذكر هنا ظاهرة ربما تكون أهم ما كُشف فى موضوع التهدم الذرى وهى ظاهرة إمكان الحصول على عناصر تكتسب نشاطاً إشعاعيّاً صناعيّاً أى مؤقتاً ، وهى عناصر تظهر أثناء عملية التحولات ولم نكن نعرفها . وقد كشف هذه الظاهرة الجديدة « أيرين كيرى » وقرينها « جوليو » من أساتذة السوربون ونالا على هذا الكشف جائزة نوبل سنة ١٩٣٣ .

ويتلخص بحثهما فى ضربهما للألمونيوم ووزنه الذرى ٢٧ وعدد شحنات النواة فيه ١٣ بجسيمات « ألفا » ، ولاحظا أنه قد تكوّن ما سمياه « راديو فوسفور » أى فوسفور ذو أجل مؤقت ، وزنه الذرى ٣٠ وعدد شحنات نواته ١٥ ، وخرج من العملية أيضاً نترونات سريعة .

علَى أن التهدم لم ينته بعد ، فإن هذا الفوسفور المؤقت يتهدم من جديد (فهو مادة مشعة لم تكن موجودة) وينتج عن تهدمه « سيلسيوم » وزنه الذرى ٣٠ وعدد شحنات نواته ١٤ ، وهو ثابت هذه المرة أى لا يتهدم ، ويلاحظ خروج بوزيتونات سريعة من العملية .

وإلى القارئ نص النشرة العلمية التى نالا من أجلها جائزة نوبل :

« يُعَرَّض الباحث صفيحة من الألمونيوم لجسيمات « ألفا » الآتية من منبع قوى للبولونيوم بضع دقائق ، فيلاحظ عند سحب الصفيحة أنها اكتسبت نشاطاً إشعاعيا ينقص إلى النصف بعد ثلاث دقائق .

وقد لاحظنا أن الجسيمات الخارجة هى « بوزيتونات » وأن القانون هو قانون أُسّى ، وعلى هذا فنحن أمام مواد مشعة جديدة وإزاء نوع جديد من النشاط الإشعاعى » .

ولقد كان هذا من أعظم ما كشفه الانسان إذ أمكن بعد ذلك لكل المعامل التى لديها آلات لتجميع البروتونات السريعة (آلات كهروستاتيكية ومحول للضغط العالى أى جهاز السيكلترون) أمكن هذه المعامل الحصول على مواد مشعة جديدة ، حتى إنه قد توصل « لورانس » فى أمريكا لعمل صناعة فعلية لراديو الصوديوم أى الحصول على ملح طعام يشع ، ويستمر إشعاعه ١٥ ساعة ، وذلك بضرب الصوديوم بالديترونات ، وهى نواة الماء الثقيل ، الذى جاء ذكره فى القنبلة الذرية ، والذى نحصل عليه بعملية فى « الألكتروليس » صعبة وطويلة .

وبعد الذى ذكرت ، فانى أؤكد للقارئ أن الانسان يستطيع اليوم أن يُحَضِّر لنفسه ما يشاء من القذائف ، فهو يُحَضِّر البروتونات كما يريد ، ويوجهها داخل المعمل حيث يريد ، كذلك يستطيع تحضير النيترونات كما يشاء ، وأكرر مقدرته على أن يوجهها حيث يشاء . كذلك أمكنه منذ زمن استخدام الجسيمات « ألفا » وأشعة « جما » فى القذف ، بل إن البوزيتونات النادرة فى عالمنا الأرضى بات من الممكن توجيهها وفق إرادته .

وأكثر من هذا أنه استطاع أن يخلق مواد مشعة لم تكن موجودة . وكل المتصلين بهذه العلوم يعلمون اليوم كيف استطاع « فرمى » وطلبته الحصول على ستين نوعا من هذه المواد لم تكن معروفة فى جدول عناصر الكون .

***

لعب إذن الإنسان بالذرة ، رآها « بكارل » تتهدم ، هدمها « رذرفورد » ، ضغطها « كوتون » ، غيرها وطرد منها ما شاء وأسكن فيها ما شاء « أيرين وجوليو وفرمى » . فاذا ذكرت لك الآن سيدى القارئ أنه عندما يتحد ، بفعل

هذه الحوادث ، فى المادة بوزيتون واحد مع ألكترون واحد انعدما وخرج من المادة فوتونان اثنان من أشعة « جما » الخطيرة بطاقة قدرها نصف مليون فولت . فكيف تكون الحال إذا انعدم بالطريقة ذاتها ملايجرام من المادة أى واحد على ألف من الجرام ؟ وما مقدار الطاقة التى نحصل عليها ؟ ! لقد حاولت التدقيق فى حسابها فأيقنت أنها توازى عمل رجل وما يمكن أن يؤديه من جهد طول حياته ، بمعنى أن الجرام من المادة يوازى إذن عمل ألف رجل يشتغلون كل يوم مدة خمسين عاماً .

***

كنت أود أن أذكر لك اعتقادى فيما وصل إليه العلماء بالذات خاصاً بالقنبلة الذرية ، وأمامى من مشاهداتى فى معامل أوربا بل وفى أوراقى وكتبى ، مايسمح لى بأن ألقى على بساط البحث بعض الفروض ، ولكن سيكون لذلك موضع آخر .

ومع ذلك فاننى أظن أنهم شرعوا فى زيادة عدد النيترونات عن البروتونات الموجودة فى نواة الهليوم حتى يكون أكثر قابلية للاشعاع والتهدم .

هذا فرض طرأ على ذهنى . وهناك فرض آخر أن يكون الباحثون توصلوا إلى وسائل خير من التى نعرفها للحصول على بوزيتونات بغزارة ، وإمكان قذفها فى النواه بجهاز ما عند حدوث الانفجار ، بحيث إنها باتحادها مع الالكترونات تنشأ أشعة « جما » ذات الطاقة العظيمة .

***

إنما أعطينا القارىء صورة أو اثنتين من مئات الصور التى يمكن للعلماء فيها أن يلعبوا بالنواة ، ولم أقص لك كل أنواع اللعب الممكنة ، ذلك أننى أردت أن أعطيك فكرة سريعة عما تكنه هذه النواة على صغرها من عظيم العجائب .

والآن أعود بك مسرعاً إلى « هيروشيما » البائسة لا لندخلها ، فإن فى دخولها خطراً عليك وعلى نفسى ، ولكن لكى نتأمل معاً إلى أى حد تقضى المعرفة على الإنسان . ولعلك تدرك الآن مما تسمعه وتطالعه فى الصحف عن الموتى الجدد كل يوم فى هذا المكان التعس أن ثمة احتمالاً لوجود مواد مشعة جديدة لم تكن موجودة ، ونشأت هناك على طريقة « ايرين كيرى » التى ذكرناها .

على أن ما يهم فى هذا كله ، أن الانسان سيُسخّر الذرة والنواة إما لخيره أو لشره . وإنى أود مخلصاً أن يكون استخدامه لها فى سبيل الخير .

عندئذ قد يتحقق ما ذُكر بأساطير « ألف ليلة » ، وماصوره أيضاً خيال « ويلز » لأبطاله فى كتبه الممتعة .

أما إذا استخدمها لشره على نطاق أوسع وبكتلة للقنبلة أكبر وبوسائل لانعدام الذرة أعظم ،فسلام الله على هذا الكوكب الذى نعيش فيه .

دكتور محمد محمود غالى

عيد أول ابريل

عاود الحبَّ هواه   وتجنت مقلتاه
وأدار الوهمُ خمراً   داعبتها شفتاه
عزف السُمَّارُ عنها   وتجافى صاحباه
وصحا منها ولما   تلمس الكاس يداه
وهو فى ليلة عرس

أشعل الشمعَ ففاض الـ   ـشمعُ دمعا ورثاه
وجنى الزهر ففاضت   روحُه قبل شذاه
عجب الناس وقالوا   أين منه ما اشتهاه ؟
أمزاحٌ أم خيال   أم جنونٌ ما اعتراه
أى وهم ؟ أى حدس ؟

وأجال الطرفَ فى الحفـ   ـل فلم يلف سواه
غاب فى ليل الأمانى   من تمنى أن يراه
وطوى الأقداح إلاَّ   قدحا فيها عزاه
هَمَّ بالكاس فزلَّت   عندما أطبق فاه
ومضت ليلة أمس ...

وترٌ فى سكرة اللحـ ـن تداعى طرقـاه
أنّ فى كف المغنى عوده الشاكى هـواه
وَدّ لو ينطق همسا ضارعا حين احتـواه
وانحنى يبـكى عليـه ثاكلا فيـه رجاه
آه لو جاد بهمس !

زفّ فى الفرحة حلما ومع الفـجر طـواه،
وشدا الشاعرُ لحنـا رَجَّعَ الليـلُ صداه
فرحـةٌ عادت نواحا مُنيَتٌ فيها مناه
وجنينٌ أسكبته الـ ـروح فى الميلاد آه
كيف ياقلب التأسى ؟!

عزيز فهمى

أدب القصة فى الاتحاد السوفيتى
أثناء الحرب

لقد ظل صوت الشعب الروسى لا يسمع مدة أربع سنوات فى غير البلاغات الرسمية التى لا يعرف كاتبها. أما الآن فقد أخذت السينما السوفيتية تطلعنا على الوجوه الحقيقية للمقاتلين فى ميدان القتال وفى الأراضى المحتلة وفيما وراء ميدان القتال، وغداً يستطيع كل إنسان أن يسمع صوت هذا الشعب حيا فى مؤلفات كتّابه؛ إذ أن الأدب الروسى كله، أو يكاد يكون كله، فى زمن الحرب، من آداب الحروب.

كان فى ميدان القتال تسعمائة من الكتّاب، هل هم مراسلون حربيون؟ إن هذا الوصف لا يعبر عنهم، فهم كانوا يقاتلون مع الجنود، ويعيشون وكثيراً ما يموتون معهم. هكذا حدث من بين كثيرين للكاتب «ا. بولياكوف» وهكذا حدث للقصصى «يورى كايموف» الذى نقلت عنه قصته الأولى «الباخرة دربنت حاملة البترول» إلى الفرنسية (سنة ١٩٣٨) وسقط قتيلا فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٤١ «بعد أن قاتل حتى النقطة الأخيرة من دمائه». لقد قال ستالين: «إن الرجل المثقف يجب أن يكون رجلا سياسيًا». ومعنى هذه الكلمة فى تعبير أفلاطون «أن يكون عضواً عاملا فى الهيئة الاجتماعية».

ربما دهش الشعب الفرنسى بعض الشىء لتعبئة الكتاب على هذه الصورة؛ فهم سيتذكرون فى اشمئزاز عادل أولئك الذين اتخذوا مرتين فى هذا القرن دماء الآخرين وسيلة لأنشاء أدب بطولة له رواج فى الأسواق. ولكن مما يسترعى النظر على العكس من ذلك فى المؤلفات الروسية عن الحرب أن أبطال هذه المؤلفات ليسوا عادة أبطالا، ففيها مغامرات عجيبة. والمغامرات دائماً من طبيعة الحروب، وسماعها مما يثير الشجاعة فى النفوس، ولكن فيها أيضاً قصص الجبن والخيانة والآلام والتعاسة، وفيها أكثر من ذلك ما ليس عظيما ولا حقيراً، فيها الحياة ومضايقات الأيام واليأس الذى لا يذكر اسمه، والجندى الذى يذكر أنه

رجل . وقد قيل كل هذا وسط القتال بل وسط الهزيمة أحياناً ؛ إذ أن مايهم ليس هو الأسطورة — فالأساطير تنمو من تلقاء نفسها — وإنما هو الحقيقة الصعبة .

ظل الأدب الروسى حتى هذه الحرب متجهاً نحو دراسة واكتشاف الرجل الجديد الذى نشأ من أيام ثورة أكتوبر وصُبّ فى هذا القالب الجديد . وفى هذه « الحرب الوطنية الكبرى » كما يسمونها فى تلك البلاد تحول الرجل السوفيتى وخلق خلقاً جديداً إذا صح هذا التعبير . كيف انتقل من الكراهية النظرية للفاشية إلى الكراهية المجردة ثم إلى الاحتقار ثم إلى الاشمئزاز ؟ وكيف تغلب على العدو وعلى نفسه ؟ هذا البحث باهتمام عن إجابات لهذه الأسئلة فضلا عن مسائل عدة أخرى هو الاتجاه العام البارز فى الأدب الروسى فى زمن الحرب . فهو أدب لايكتفى بمجرد أقوال خطابية فى الوطنية المزيفة ، بل ليس هو أدب قصص كبيرة بالمعنى المفهوم ؛ فليست الساعة هى وقت الاتساق الواسع ، إن مايهم هو التسجيل .

وهكذا نشرت مؤلفات مثل كتاب « أوريل » وكتاب « ستالينجراد » ولا يمكن أن يصل التخصص والابتكار إلى أبعد من ذلك . ففى أول الكتاب نصوص رسمية : نداءات وأوامر وبلاغات خاصة ثم رسائل من المقاتلين وصور وروايات تختلف من حيث القيمة الأدبية ؛ إذ أن بعضها موقع عليه بأسماء مجهولة أو غير معروفة ، وبعضها بأسماء مشاهير الكتاب (إهرنبرج وتيخونوف وجورباتوف وجروسمان وفدييف . . .) . وهذا مزيج قد يظهر مختلطاً فهل يجنى منه الأدب كثيراً ؟ ومع ذلك فكل هذه النظرات النافذة كثيراً أو قليلا وكل هذه الصور الملونة كثيراً أو قليلا ، أليست هى النظرة الشاملة للمجموع ، أليست هى الحقيقة ؟

لقد نشرت مقتطفات من مذكرات الطريق للضباط الألمان والجنود ، وجمع إهرنبرج فى مجموعته « مائة رسالة » خطابات تبادلها مع المقاتلين ، ووصف ا . بوليانوف وكان معلماً سياسيًا وأحيط بفرقته فى يونية سنة ١٩٤٢ — فى « مذكرة الطريق » كيف تمكنت فرقته من العودة إلى الاتصال بالخطوط الروسية . وهذه المذكرات التى نشرت تحت عنوان « فيما وراء العدو » بعيدة عن أن تكون عملا أدبيا لكاتب . فالأسلوب جاف وكثيراً ماتنقصه الألوان ولم يبذل جهد فى تأليف المجموع ، ومع ذلك ليس من شك فى أنه كبير القيمة لأن لغته هى لغة الحقيقة ، ونحن نقرأ الكتاب فنقول « إنه كالقصة » .

***

إن من واجب الفرنسى أن يضع إليا إهرنبرج فى الصف الأول من كتاب السوفيت، لا لأنه أكبر الكتاب بل لأنه ظل أربع سنوات موضع سخط الصحافة الألمانية التى تصدر بجميع اللغات بما فيها الفرنسية، ولأنه بينما الأصوات الرسمية والشبيهة بالرسمية التى تزعم أنها فرنسية كانت تنهال عليه بالاهانات وتهين عن طريقه روسيا السوفيتية بأسرها، أخذ يقوم بواجب خطير هو أن يسمع فى بلاده صوت فرنسا الذاهبة. ولسنا نستطيع أن نتكلم عن كتابه الذى ظهر عن «سقوط باريس» فى بضعة أسطر؛ ففى ذلك خيانة له. وسيثير هذا الكتاب مناقشات؛ ونقداً فهو ليس بالكتاب الكامل ولكنى أظن أنه ما من فرنسى يستطيع أن يتلو تلك القصة المؤلمة للسنوات المحزنة بين ١٩٣٥ و ١٩٤٠ دون أن يتأثر. وليس من حق أحد أن ينسى أن هذا الكتاب من وضع روسى. وكم من الفرنسيين يستطيع أن يضع كتاباً مماثلا عن روسيا السوفيتية يدل على الذكاء ونفاذ البصيرة؟ بل كم من الفرنسيين يستطيع أن يضع كتاباً مماثلا عن فرنسا؟

إن فيه أخطاء فى التفصيلات وشيئاً من التطويل فى مواضع، وقد يعارض بعضه التفسير السياسى للحوادث، ولكن لا يستطيع أحد أن ينكر رنة الحقيقة فى مجموعه وعمق الصور وصدقها، وهذا هو السبب فى نجاح الكتاب بروسيا نجاحاً عظيما. فقد تعلم منه الروس ألا يخلطوا بين فرنسا وتلك الشرذمة من الخونة المسئولة عمداً أو عن غير عمد عن يوليه ١٩٤٠ وعن نظام فيشى، على أن ما يضايق القراء الفرنسيين إلى حد ما هو شىء من التناقض. فهذه القصة القائمة على حدود التاريخ ليست قصة تاريخية، والشخصيات «التاريخية» لم تذكر إلا على سبيل السرد وليس لها أى دور هام، ولكن المسيطرين على الحوادث فيها والصور «السياسية» التى درست فى عناية ودقة إنما هى شخصيات من وضع الخيال مثل ڤيار وتيرا وجرودل. وستظل هذه أمام الفرنسيين اشخاصاً غير حقيقية، وهم يحاولون البحث عن سر الشخصيات الحقيقية المختفية وراءها. فهل وراءها شىء حقيقة؟... إنها ليست إلا رمزاً وخلاصات أحياناً، والفرنسى لا يرتاح إلى هذه الصور المجردة.

لقد أخذ إهرنبرج فى وضع تكملة «لسقوط باريس» هى «نهضة باريس»،

على أنه كتب عدة مقالات وقصص صغيرة لا سيما مجموعة فرنسا سنة ١٩٤٣ (وهو يقول إنه لم يغير فى الوقائع غير الأسماء) حيث رسم صوراً حقيقية وقوية لفرنسا الناهضة المنتصرة . ولقد قال لنا فى مطلع سنة ١٩٤٥ « إنى لأتمنى ألا تنسى فرنسا مطلقاً » وإنا لنتمنى أيضاً ألا تنسى مطلقاً ما عليها من دين لإهرنبرج .

* * *

إن قراء كتابى « فوق نهر الدون الهادىء » و « إنقاذ الأراضى البائرة » سيقبلون فى سرور على كتب ميشيل شولوكوف الجديدة ؛ فلعله نجح أكثر من أى شخص آخر فى أن يرسم للجندى الأحمر صورة إنسانية فى كتاب « علم الكراهية » وهو ليس إلا قصة طويلة ، وبصفة خاصة فى مؤلفه « إنهم قاتلوا من أجل الوطن » وهو كتاب كبير لم تظهر منه غير مقتبسات فى عدة صحف ومجلات ؛ فهو يصف الجنود فى أيام الارتداد المؤلمة وهم فى أعمالهم اليومية الحربية . وهم بلاريب أبطال ، ولكنهم أيضاً جنود بسطاء كأمثالهم فى العالم ساخرون أحياناً وغاضبون على الطائرات التى لا تظهر إلا متأخرة أو الرماة بالمدافع الذين يرمون إلى مسافات أبعد من خطوط العدو ، فهم رجال عاديون يصغون إذا ما هدأ القتال إلى قطع الحجارة الرملية وهى تتساقط من جوانب الخنادق فيكون لها رنين كأنها نواقيس غير منظورة ، ثم إلى صوت صرصور صغير ، ثم إلى تنهد عميق أشبه بالعزف على وتر غليظ من أوتار قيثارة ، ثم إلى صياح السمان المعروف يقطع السكون بمعجزة .

وبإزاء هذه الصور « الفردية » المحددة للحرب نجد كتاباً مثل « أوريل » لقسطنطين سيمونوف (الذى سوف نتكلم عنه عند الكلام عن الشعر) يظهر لنا موقعة وهى فى أثناء سيرها . فالجنرال برايا نكنيكوف وهو من أبطال ستالينجراد (وقد رقى هنالك) يريد أن يؤلف فرقة من مقاتلى ستالينجراد وهو يلقن الحديثين دروس الدفاع الناجح العظيم ، فهو يريد أن يخلق « تقليداً لستالينجراد » يحذوه الناس ، وعلى مقربة من أوريل تقوم الموقعة ، فنحن لا نرى غير شخص واحد هو الفرقة وكيف تعيش وكيف تقاتل كما يراها زعيمها ، وهى تعيش وتقاتل كأنما لها جسد مثل جسدنا . وهكذا يظل سير الموقعة واضحاً

حتى للشخص العادى ، دقيقاً بل حيًّا وقد بعثت فيه الحياة الاجتماعية للفرقة .

ونرى نظرة مماثلة فى « لننجراد » لنقولا تيخونوف وهو فى شكل مذكرات يومية للمدينة من مايو سنة ١٩٤٢ إلى مايو سنة ١٩٤٣ وكل فصل منها عن شهر خاص ، ومجموع الكتاب يؤلف وجه المدينة بأسرها برماتها المنتخبين وأطفالها حاملى البريد . ولقد عاش تيخونوف بالمدينة أثناء حصارها ووضع كتاباً أسماه « قصص لننجراد » وفيها وصف للبطولة وغير البطولة وهى مع ذلك قصص مغامرات فردية . أما فى كتاب « لننجراد » فتلك قصة المدينة مجتمعة وهى تخور بوقوفها فى وجه المنطق ؛ وهى مدينة بطرس الأكبر ، ثم مدينة ثورة أكتوبر وهى الآن أمام العدو مدينة لنين التى لاتقهر وفيها بين صور أخرى — فى فصل لننجراد فى مايو سنة ١٩٤٣ — صورة المدينة ينظر إليها من الخليج فى ليلة من ليالى ضربها بالقنابل ، وتلك صفحات من العظمة والشعر لا يمكن نسيانها .

كان يعيش ويكتب فى لننجراد غير تيخونوف كاتب كبير هو ا . فدييف . ومما يسترعى النظر أنه إذا قابلنا بين كتابات الشاهدين وجدنا الأعمال نفسها والعواطف نفسها ، لا سيما ذلك الفخر للتمسك بالدفاع وإعادة الحياة إلى مدينة ظنها الألمان محكوما عليها بالموت . فكتاب فدييف المسمى « لننجراد فى أيام الحصار » كتب فى ربيع سنة ١٩٤٢ بعد الشتاء الأول الذى كثر فيه الثلج ونزلت الكمية من الخبز للفرد إلى مائة وخمسين جراماً فى اليوم . ويجب أن ننتظر قبل أن تصير هذه الصفحات من اليوميات المؤرخة بين ابريل ويوليه سنة ١٩٤٢ صفحات للانتصار . ولاينسى فدييف أن يشرك النساء والاطفال مع الرجال ولكن ما يفسر لعينيه ما يقومون به أكثر من أى شىء هو مايشعر به الجميع من أن تلك المدينة دارهم الوحيدة العظيمة وأن السكان جميعاً يؤلفون أسرة كبيرة مشتركة .

وفى الجانب الآخر من روسيا كان هنالك مدينة عظيمة موضع نصر عظيم : ستالينجراد ، لقد مر فيها سائر كبار الكتاب الروسيين تقريباً وتركوا دراساتهم وقصصهم ، ونشر محل كولبير بالفرنسية رواية قسطنطين سيمونوف المسماة « أيام ستالينجراد ولياليها » . وتجب قراءة هذا المؤلف فهو يقص قصة وحدة من وحدات الجيش عبرت نهر الفولجا لنجدة الذين يقاتلون فى المدينة ، وما كادت تصل فى غسق الليل حتى اشتركت فى جحيم قتال الشوارع . وكان عليها أن تسترد

ثلاثة من الدور وتحتفظ بها ، وقد فعلت ، وظلت هذه الوحدة تصطلى هذا الجحيم أياماً وليالى ، وليس ما يخفف عن كابتن سابوروف حتى ذلك الحب الذى ازدهر ازدهاراً غريباً بينه وبين « آنيا » الممرضة ، ولم يؤد إلا لأن يعرف العاشقان الخوف . وفى ذات صباح سمع الذين بقوا فى الحياة من تلك الوحدة شيئاً ! فمنذ أربعة أيام كان قائدهم يستيقظ قبل ابتداء النهار ليستمع ويتأكد من أن « الشيء قد بدأ » وأخيراً استطاع أن يتحدث فى التليفون إلى كابتن سابوروف ليسأله هل سمع هو أيضاً ، ويسأل سابوروف بدوره رجاله ويصغى الجيش بأسره ويستمع ويفهم أن الجحيم انتهى لأن « الشيء » قد بدأ « ولم تكد تمض ساعة على استمرار هذا ، ولا يمكن أن نقدر الحياة بدون هذا الهزيم العجيب المدافع »

أما فاسيلى جروسمان فهو أقرب إلى طريقة نقل أنباء الصحف فى كتابه « ستالينجراد » . وهو نقل للأنباء يبلغ أحياناً فى البعد عن التنميق درجة البلاغات الرسمية كما فى مقاله المسمى : إدارة الهجوم الأساسى (أو محور المجهود الأساسى) . فهذا المقال ليس إلا وقائع وأرقاماً ولكن قصة المجهودات التى بذلها الألمان فى نوفمبر سنة ١٩٤٢ للقضاء على المدينة تصل فى صورتها إلى قوة عجيبة ، وهى أكثر من أن تكون نموذجاً فى عرض الخطط وإنما هى قصة مغامرة لم يعد للرجال فيها وجود على أنهم أفراد بل هى قصة القوى الهوجاء المجهولة التى تسير بالحرب . ولكن جروسمان يعرف كيف يحلل النفس الإنسانية ففى كتابه « الشعب خالد » مثلا ولا سيما فى قصته الجميلة « الحياة » يصف سبعة وعشرين جنديا أحيط بهم فالتجأوا إلى منجم فى حوض الدونتز ، فأرسل الألمان شيخاً مع ثلاث نساء لإقناعهم بالخروج من المنجم وإلا انتقموا من المدينة ، فإذا الشيخ يبقى فى المنجم وكان قديماً من عماله وغمرته السعادة للعودة إليه ، وهذا الشعور نحو المنجم هو شعور مضحك بعض الشيء ومؤثر للغاية فى الوقت ذاته . وهو يقص انه زار هذا المنجم عند عودته من الأسر فى الحرب الأخرى قبل أن يزور امرأته لأنه كان يشعر بوحشة لانقطاعه عنه وهو يبكى الآن إذ عاد إليه ثم ينقذ اللاجئين إذ يكتشف مخرجاً لهم ولكنه لا يخرج معهم بل يجد الموت فى قاع هذا المنجم وهو موت يتقبله فى هدوء وغبطة بل فى فخر لأنه أجمل ميتة كان يتمناها

كذلك نجد شخصيات مضحكة ومؤثرة فى مجموعة ف . كافرين المسماه « لم نعد كما كنا » مثل ذلك الجريح التعس « لاسوف » الذى كان يموت من الضيق أكثر من الجراح إذ لا يكتب إليه أحد رسائل . وفى ذات يوم تأتيه رسالة من مجهول تتبعها رسائل فتعود إليـه الرغبة فى الشفاء ويشفى وهو يحلم بأن التى تراسله سيدة كبيرة أو ممثلة سينما ، فإذا انقطعت الرسائل فهم أن كاتبتها هى « لوكا » الممرضة .

وحدث أن مرضت بدورها مرضاً شديداً خطيراً ، وتعود ثانية فيعهد إليها فى ان تكتب ردا على رسالة المرأة المجهولة ، ويحمر وجه الاثنين ويسكتان ، وفى المساء كان الجو صافياً ، فخرج « فلاسوف » يبحث عن « لوكا » فيفاجئها وهى تكتب رسالة الوداع له فهما عاشقان إذن ولـكن كلاً منهما لا يعلم لماذا كان هذا الحب وكيف تولد . ونجد فى المجموعة كلها مثل هذه الرقة . وقلما يسمح المؤلف لنفسه فى نظرة صغيرة ساخرة (كما فى قصة « قلب بسيط » ، وهو يتكلم أيضاً عن التحمل فالناس تحت ضغط الحرب يتغيرون فهو إلى جانب تلك الإحساسات التى لا محل لها بعض الشىء يصـف رجالاً قتلت فيهم الحرب كل إحساس أو رفعتهم إلى أعلى من نفوسهم الصغيرة فهم نوع واحد ؛ لأن كلاً منهم لايستطيع الحياة إلا من أجل أمر أكبر من حياتهم . فهو يصف هؤلاء البحارة الذين يقاتلون لـكى ينقذوا صورة من رسم « تيزيان » وهؤلاء الطيارين الذين يناضلون بعد أن سقطوا فى البحر وهم على خشبتهم من أجل الحياة لأنهم « يعرفون بأن الواجب يقضى بألا يموتوا إذ أمرت القيادة صراحة بأن يحرصوا على الحياة » .

ولنذكر فى نهاية هذا العرض القصص الأساسية للحرب ، فنذكر ليونيد سوبوليف الذى كتب « حياة البحارة » وليونيد سولوفيف المراسل البحرى فى سباستوبول الذى رسم فى بحارة البحر الأسود (١٩٤٢) وفى « إيفان نيكوبين » البحار الروسى (سنة ١٩٣٤) صورة حية لمعيشـة البحارة الروس فى أثناء القتال

وظهر أخيراً كاتب شاب (وقد ظهر مرتين لأنه استحق لقب بطل الاتحاد السوفيتى) وهو جورج برزكو ، فقصته : « اللهب الحمراء » تدل على ثبات فى الرواية وقدرة على التحليل تسترعى النظر وتعلق آمالاً كبارا على مؤلفها .

***

ليست الحرب هى مجرد الوقائع الكبيرة أو الصغيرة بل هى أيضاً البلاد المحتلة والمصانع. ولم يهمل المؤلفون الروس فى رسم هذين الوجهين من وجوه الحرب وهما ربما كانا أقل بروزاً، ولكنهما لا يقلان تأثيراً.

ولقد أدت السينما إلى أن عرف العالم قصة فاندا فاسيلفسكا الرائعة المسماة « قوس المطر » فليس من أحد شاهد هذه القصة يستطيع أن ينسى مأساة تلك القرية الصغيرة المحتلة. فهذه القرية إن هى إلا صورة مصغرة لجميع بلاد روسيا المحتلة. وإنى لأعرف ما يمكن أن يوجه إليها من نقد إذ يقال أن القصة كاملة أكثر مما يجب؛ فهى إذاً بعيدة عن الحقيقة ظاهرة التعمل ولكن لا الأشخاص ولا الوقائع هى مجرد رموز، ولنتذكر: ألم يكن الحال مثل ذلك فى فرنسا؟ ألم تعرف فرنسا تلك الأم المعذبة وأطفالها المرهقين ورهائنها بل هذا العمدة الخائن المتجبر أمام مواطنيه والضعيف الباكى أمام محاكميه. وذلك الألمانى الذى يقتل أطفاله ويكتب رسائل حب لزوجته بينما هو يخونها مع فتاة يحتقرها؟ ألم يعرف الفرنسيون تلك الكراهية وتلك المتاعب وتلك الحماسة التى عرفها الروس؟ أليست هذه هى الحقيقة نفسها.

أما الصورة التى يرسمها بوريس جورباتوف فى روايته « الذين لا يقهرون » فهى أكثر كمالا فهى صورة الجيش المرتد يخترق القرية ثم القرية فى يد العدو وإجبار الكهول على العمل وهرب الابن الأسير الذى لا يريد « تاراس » الشيخ أن يعترف بأنه ابنه إذ فضل التسليم على الموت ولا سيما أولئك الكهول والنساء الذين حملوا على عربات اليد كل ملابسهم وما يملكون وهم يسيرون بلا انقطاع نحو الأراضى التى لم يجتاحها العدو ليستطيعوا مبادلة متاعهم بشىء من الطعام. ولقد تركت أم وهى تهجر أبناءها قليلا من البطاطس بعد أن قسمتها بينهم قسمة متساوية، وفى كل يوم تحسب الأم حساب ما تبقى وفى يوم دل الحساب بأنه بقى لهم نصف المئونة فهى تعود إليهم خاوية اليدين أما رفاقها فلا يقولون شيئاً ولا يحاولون منعها بل يتابعون السير وهم على عقيدتهم فى الأرض المباركة. وهكذا يقابل الشيخ « تاراس » ابنه الثانى وهو مكلف بمهمة وراء خطوط العدو

ويكون سرور الشيخ عظيما إذ يعلم أن الجيش الأحمر لا يزال قائماً وهو يقاتل بعيداً نحو الشرق فهو إذن سليم ، ويقفل تاراس عائداً إلى قريته ليجد منزله وقد نهب وابنته وقد شنقت ولكن عقيدته لا تتناقص فهو من فريق الذين لا يقهرون ، وهذا ما يجعل القصة غير خانقة ، تلك العقيدة وذلك الإيمان الثابت الذى يقوم فى وجه الحقائق ثم أحياناً عدم الاهتمام العجيب وذلك النسيان المدهش حين تسمع نغمة عزف « الأكورديون » وسط أسوأ المواقف .

أما القصص عن « ميدان القتال فى المصانع » فليس فيها تجديد كبير فى الأدب الروسى وهى تشمل قصص المصانع وقصص العمل التى ظهر مثالها فى الأدب السوفيتى فى قصة « الصلب المسقى » لنقولا أوستروفسكى وفى « دون أن يسترد أنفاسه » وهى لأيليا إهرنبرج ، فهى ترسم صورة الرجل الذى تريد روسيا الجديدة أن تخلقه وهو قادر على أن يعيش من أجل العظمة الصناعية للاتحاد السوفيتى كما يعيش بعض الناس من أجل حب كبير أو عمل حربى عظيم . فرواية ماريتا ساجنيان المسماة « مجهودات الحرب فى الأورال » وأنا كارافيون المسماة « سادة العمل الستالينى » وناتان ريباك « الأسلحة معنا » واركادى برفنتر « التجربة » كلها ترمى إلى هذا ، والأخيرة قصة مصنع للطيارات فى « أوكرين » أنشىء فى أثناء مشروعات الخمس سنوات وكان من الواجب نقله إلى الشرق . ولهذا المصنع وهب رئيس المهندسين « دوبنكو » حياته ، فهو ابن عامل ارتفع فى سلم الحياة بمجهوده وهذا المصنع مصنعه وكل طيارة يخرجها هى جزء منه كما لو كانت شعراً أو صورة . والمصنع الآن هو تحت نار القنابل ويجب فك الآلات لنقلها قطعة قطعة . وعرف دوبنكو « تجربة الهدم المرة : وقد تقلصت من نفسه فى ذلك الوقت غريزة الإنشاء » وكذلك حزن العمال على هدم آلاتهم وترك مقتنياتهم ولا يستطيع أحدهم « كومنكو » أن يبتعد عن مصنعه (إذ ليس له فى العالم غيره بعد أن أبيدت أسرته) ويموت فى المصنع عند ما يدمر ما لا يمكن نقله من بناياته وآلاته ثم يكون وصف « الأورال » والمصنع الجديد والزملاء الجديدين الذين يتجمعون فى البيوت كى يدبروا مكاناً للمهاجرين ، فهل هذا المصنع جديد ؟ لا ، إنه المصنع نفسه فيه الحماسة ذاتها والرجال أنفسهم والمجهود الكبير للانشاء والحرب .

نستطيع أن نهز أكتافنا إنها قصة تنتهى نهاية حسنة ، قصة دعاية ، بلا ريب ولكنها قصة جيدة ، قصة تفاؤل وإيمان ، وقد قام مؤلفها عند كتابتها بواجبه كمقاتل — لنا أن نقول ذلك ولكن الحوادث أيدته فيما ذهب إليه .

دنيه برنار ماركيه

نقلها عن مجلة «پارو» الفرنسية حسن محمود

بريطانيا العظمى والشرق الأدنى

لا يأتى الكاتب بجديد حين يقول إن خطورة الصلات بين بريطانيا العظمى والشرق الأدنى إنما أخذت تظهر وتشتد فى الأعوام الأخيرة من القرن الثامن عشر، حين عظم الخلاف بين فرنسا الثائرة المجددة وبريطانيا العظمى المعتدلة المحافظة، وحين اعتزم بونابرت أن يقطع على البريطانيين طريقهم إلى الهند فأغار على مصر، وهمّ أن يغير على الشرق الأدنى كله، ثم أدركه الإخفاق، فعاد إلى فرنسا وترك جيشه الذى لم يلبث أن صالح خصومه وعاد هو أيضاً إلى وطنه الثائر المضطرب.

منذ ذلك الوقت أصبح الشرق الأدنى ميداناً للتنافس بين الدولتين الغربيتين. ولكن مؤثرات مختلفة دعت إلى أن يكتب الفوز السياسى والاقتصادى والعسكرى أيضاً لبريطانيا العظمى فى هذا الميدان. فقد شغلت فرنسا بشؤونها الداخلية من جهة وبشؤون أوربا من جهة أخرى معظم القرن التاسع عشر، قامت فيها الإمبراطورية الأولى وما شبّه نابوليون من الحروب، وانتهت بالكارثة التى أرسلت نابوليون إلى « سانت هيلين » وأخضعت فرنسا لاحتلال المنتصرين. ثم جعل الصراع بين الثورة الفرنسية والنظام القديم يأخذ أشكاله المختلفة المعروفة، حتى أنشئت الجمهورية الثانية، ثم الإمبراطورية الثانية؛ ثم كانت الحرب مع بروسيا، ثم كانت الهزيمة واحتلال الألمان لفرنسا، ثم كانت الجمهورية الثالثة، واتجه الفرنسيون إلى إنشاء إمبراطوريتهم فى أفريقيا وآسيا. ولكنهم فى كل هذه الفترة لم يخاصموا البريطانيين فى شؤون الشرق الأدنى إلا قليلا، كما أنهم لم يعاونوهم فى هذه الشؤون إلا قليلا.

وفى أثناء هذه الفترة أيضاً تطور الشرق الأدنى نفسه تطوراً داخليا خطيراً، أيقظه اختصام الفرنسيين والبريطانيين من حوله واتخاذه موضوعا للنزاع؛ فنشأت الدولة المصرية، وكان من الصراع بينها وبين الترك ما زاد يقظة الشرق

الأدنى قوة وبأساً ، وجعله عنصراً أساسياً فعالا فى الخصومة بين الفرنسيين والبريطانيين .

وليس من شك فى أن سياسة محمد علىّ الكبير كانت عاملا بعيد الأثر فى خصومة الدولتين الغربيتين . وليس هنا موضع التفصيل للتنافس البريطانى الفرنسى وتأثير الشرق الأدنى نفسه فى هذا التنافس . ولكننا نستطيع أن نلاحظ أن الصلة بين بريطانيا العظمى والشرق الأدنى قد مرت بأطوار مختلفة منذ أغار بونابرت على مصر إلى الآن . وكان مظهر بريطانيا العظمى فى الطور الأول من هذه الأطوار مظهر الصديق للدولة العثمانية المحافظ على سلامتها الذى يريد أن يردّ عنها عدوان الفرنسيين . ثم كان مظهرها فى الوقت نفسه مظهر الصديق للشرق ولمصر خاصة ، فهو قد أعان على تحرير مصر من الاحتلال الفرنسى ومهد بذلك لإنشاء الدولة المصرية الحديثة . والأمر ما لم تُلْقِ مصر نفسها فى أحضان هذا الصديق الحميم المعين ، وإنما ظلت متجهة إلى فرنسا تستعينها على ما أخذت به من أسباب الحضارة الحديثة ؛ فقد كان اعتماد محمد على الكبير وخلفائه على الفنيين الفرنسيين فى شؤون الحرب والرى والصناعة والزراعة أوضح من أن يحتاج إلى بيان ، وانتهى هذا كله بما كان من إنشاء قناة السويس ، وبما كان من احتيال البريطانيين حتى ظفروا بنصيب من أسهم هذه القناة وأصبحوا يستطيعون أن يقولوا كلمتهم فى شؤون هذه الشركة .

والظاهر أن ظروف الشرق الأدنى ونشاط الفرنسيين وفتور المصريين فى التقرب إلى الإنجليز واختلاط الشؤون المالية فى مصر ، كل ذلك قد أعان على انقضاء الطور الأول من أطوار الصلة بين الشرق الأدنى وبريطانيا العظمى ، وهو طور التودد من بعيد والمحافظة على مصالح الإنجليز فى حزم وعزم ويقظة ، ولكن فى أناة وتحفظ واحتياط . حتى إذا جد الجدّ وأصبحت مصر بعد احتفار القناة وتقريب المسافة بين الشرق والغرب نقطة الخطر الحساسة فى طريق الإمبراطورية البريطانية ، رأينا الإنجليز ينتهزون الفرص حينا ويخلقونها أحيانا ، حتى إذا واتتهم الفرصة أغاروا على مصر ليقمعوا الثورة فيها ويردّوا الأمن إلى نصابه ، ثم ليعودوا بعد ذلك من حيث أقبلوا . ولكنهم قمعوا الثورة وأقروا الأمن وأعجبهم الجو فأقاموا وما زالوا مقيمين إلى الآن .

وكذلك بدأ الطور الثانى من أطوار الصلة بين البريطانيين والشرق الأدنى

فى هذا العصر الحديث ، هذا الطور الذى يمتاز بالتدخل المباشر فى أدق الشؤون المصرية وبمراقبة شؤون البلاد الشرقية العربية الأخرى من قرب . حتى إذا كانت الحرب العالمية الأولى ظهر للإنجليز وحلفائهم أن بريطانيا العظمى قد عرفت كيف تحتاط لمستقبلها وأحسنت انتهاز الفرصة ؛ فقد سيطرت أثناء الحرب على طرق المواصلات الإمبراطورية وضمنت وسائل نقل الجند والمؤونة ، وساهمت بذلك أعظم مساهمة فى كسب الحرب وتحقيق النصر .

وفى هذا الطور كان التدخل البريطانى فى الشؤون المصرية خاصة والشرقية عامة قد أخذ يغير قلوب الشرقيين وميولهم نحو الإنجليز ونحو الفرنسيين جميعاً . فلم تكن بريطانيا العظمى فى هذا الطور هى الصديق الذى ينظر من بعيد ويظهر الاستعداد للمعونة والتأييد حين يحتاج الشرق إلى المعونة والتأييد ، وإنما كانت خصما معتدياً يحتل قلب الشرق الأدنى ويتحكم فيه وينتهز الفرص لبسط سلطانه على البلاد المجاورة . وأخذت فرنسا مكان بريطانيا العظمى ، فأصبحت صديقاً حميما ليس له مطمع سياسى ، لايحتل أرضاً ولايتدخل فى شؤون الحكم ، وإنما يظهر العطف ويلوح بالتأييد . وجعل المصريون والشرقيون يخاصمون بريطانيا العظمى خصاماً يختلف قوة وضعفا باختلاف الظروف ، ويستعينون فى هذا الخصام بعطف الصحف الفرنسية وتأييد الكتاب الفرنسيين ، حتى بعد أن تم الاتفاق الودى بين الدولتين فى أول هذا القرن . ولكن الحرب العالمية الأولى ختمت هذا الطور وأنشأت طوراً ثالثاً للصلة بين بريطانيا العظمى والشرق الأدنى يمكننا أن نسميه طور العنف . بدأته بريطانيا العظمى باعلان الحماية على مصر فى أواخر سنة ١٩١٤ ، ثم استمر بعد الحرب يأخذ أشكالا مختلفة من العنف واللين ، ومن القرب والبعد ، ولكنه يمتاز بشيئين خطيرين : أولهما أن سلطان بريطانيا العظمى الفعلى قد عظم واتسع ، ففرض الانتداب البريطانى على فلسطين وشرق الأردن والعراق . وكذلك لم تبق بريطانيا خصماً لمصر وحدها ، وإنما أصبحت خصماً لأقطار مختلفة من أقطار الشرق العربى .

الثانى أن فرنسا لم تحتفظ بموقف الصديق الذى يعطف من بعيد دون أن يبتغى منفعة أو يحقق مأرباً ، وإنما شاركت فى الغنيمة ففرضت انتدابها على سوريا ولبنان . وجعل الشرق العربى ينظر إلى الدولتين الغربيتين نظرة متقاربة ، يرى فيهما خصما

قد اعتدى على حريته وحال بينه وبين ما كان يطمح إليه ويطمع فيه من الاستقلال.

وهنا ظهر التفوق البريطاني ومهارة الساسة البريطانيين في سياسة الأمور الخارجية. فجعلت بريطانيا العظمى تعالج مشكلات الشرق العربي عنيفة مرة ورقيقة مرة أخرى، ولكنها صابرة ومصابرة دائماً، حتى ختمت هذا الطور الثالث بحل شيء من هذه الجزئيات حلا جزئياً؛ فألغت حمايتها على مصر أولا، ثم مازالت تداور وتناور حتى انتهت بعد خطوب كثيرة إلى إمضاء المعاهدة البريطانية المصرية سنة ١٩٣٦، وألغت الانتداب في العراق وعقدت معه معاهدة أيضاً، ولم تحتفظ بالانتداب إلا في فلسطين وشرق الأردن. وفي أثناء ذلك كانت فرنسا تضطرب في سياستها الشرقية اضطراباً خطيراً أقل ما يوصف به أنه لم يكن حازماً ولا عازماً ولا مخلصاً. جعلت فرنسا تقدم رجلا وتؤخر أخرى، تفرق لتسود، وتسود لتفرق، تظهر الإسماح حيناً ثم لا تلبث أن تعود إلى الأفق الضيق العنيف، تعرض المعاهدة ثم لا تلبث أن ترفضها. وبذلك فقدت السياسة الفرنسية ثقة الشرق العربي بها واطمئنانه إليها، وكسبت سوء الظن بها وشدة الشك في صدق نياتها.

وأقبلت الحرب العالمية الثانية، فإذا بريطانيا العظمى مطمئنة إلى الشرق العربي، وإذا الشرق العربي مطمئن إليها، قد أرضته بعض الرضا وأطمعته في الرضا الكامل متى وضعت الحرب أوزارها. وكان لحسن الصلة بين الشرق العربي وبريطانيا العظمى أثر غير قليل في الاحتفاظ لفرنسا بمكانتها في هذا الشرق. وقد كانت فرنسا حليفة لبريطانيا العظمى، ووفت بريطانيا العظمى لحليفتها بعد المحنة وفاء لا شك فيه، كما وفى الجنرال دي جول وأصحابه للحليفة العظيمة وفاء لا شك فيه أيضاً. واستطاع الحلفاء البريطانيون والفرنسيون أن يطردوا النفوذ المحوري مع السلطان الفيشي من سوريا ولبنان. وعاش الشرق العربي كله على الوعود والأماني من جهة، وعلى الثقة بتحقيق الوعود والأماني من جهة أخرى متى وضعت الحرب أوزارها. وأدى الشرق العربي ثمناً غالياً جداً لما عاش عليه من الثقة والوعود والأماني، فضحى بكثير من مرافقه، وأعان بكثير من جهوده، واتخذ المحور لنفسه عدواً وعامله كما يعامل الأعداء، واكتأب وابتأس حين كانت الدوائر تدور على الحلفاء، واغتبط وابتهج حين استوثق لهم الأمر وتم لهم هذا النصر العظيم.

وبذلك انتهى هذا الطور، وبدئ بانتهاء الحرب الثانية طور جديد تضمره الأيام ولم يتكشف عنه الغيب بعد. أيكون طور وئام وسلام وتعاون، أم يكون طور صراع وخصام واختلاف ؟ جواب هذا السؤال عند البريطانيين أنفسهم؛ فهم يعلمون حق العلم أن الشرق العربى ما زال لهم مكبراً وبهم واثقاً وعليهم عطوفاً. وهم يعلمون أن الشرق العربى قد عرفهم أكثر مما عرف غيرهم، وألف التعاون معهم أكثر مما ألفه مع غيرهم. وهم يعلمون حق العلم أن الشرق العربى لا يضمر لهم شراً ولا يكيد لهم كيداً، ولا يحب شيئاً كما يحب تنظيم الصلة بينه وبينهم على أساس من تبادل الود والثقة والمنافع القريبة والبعيدة. ولكنهم يعلمون فى الوقت نفسه حق العلم أن طبيعة الشرق العربى قد استردت صفاءها القديم ونقاءها الذى نعمت به فى وقت من الأوقات، وأن نفس الشرق العربى قد استيقظت من نومها ونشطت بعد فتور، واستردت شعورها القديم فى العزة والكرامة، وأصبحت لا تطمئن لأن تكون تابعة، ولا ترضى بأن تكون مسودة ولا تستقر إلا إذا ظفرت بحقها الكامل فى الحرية والكرامة والاستقلال، وبنصيبها الكامل من العدل السياسى الدولى، لتفرغ لتحقيق العدل السياسى والاجتماعى فى داخل أقطارها. وليس بينها وبين غايتها هذه الكريمة إلا عقبة واحدة، هى أن تفهم بريطانيا العظمى ويفهم معها حلفاؤها أن قيم الأشياء لم تتغير بالقياس إلى الغرب وحده ولا بالقياس إلى الأقوياء وحدهم، وإنما تغيرت بالقياس إلى العالم المتحضر كله، وأن أمم الشرق العربى قد انتهت من الرشد السياسى والثقة بالنفس والاعتماد على الجهد الخاص إلى حيث لا تستطيع أن تفهم حياة سياسية لا تحقق لها حريتها واستقلالها.

وقد كان نظام الاحتلال والتسلط السياسى شيئاً يمكن الاعتذار عنه قبل الحرب الماضية وبين الحربين، فأما الآن وقد تقرر نظام الأمن الاجتماعى، وأصبحت الأمم المتحدة كلها ضامنة لاستقلال الأمم المتحدة كلها، فلم يبق للاحتلال ولا لسياسة التسلط معنى يمكن فهمه أو الاعتذار عنه. والخطر كل الخطر أن يحتفظ المنتصرون بتلك العقلية التى كانت تخيل إليهم فيما مضى أن من الممكن بذل الوعود والنكول فى التنفيذ؛ فقد أصبح هذا النوع من المزاح السياسى غير سائغ ولا محتمل.

ولبريطانيا العظمى مصالح اقتصادية وثقافية هائلة فى جميع أقطار الأرض

وفى أقطـار الشرق العربى خاصة . وأحسن وسيلة للمحافظة على هذه المصالح وتنميتها إنما هى الثقة المتبادلة والتعـاون الصادق . وأعتقد أن من الممكن بل من الخير بل من اليسير جداً أن تبلغ بريطانيا العظمى بالثقة والمودة والاحترام المتبادل من تحقيق هذه المصالح وتنميتها كل ماتريد .

وما أشك فى أن الشرق العربى كله لايتمنى شيئاً كما يتمنى أن تلغى المشكلات السياسية بينه وبين الغرب عامة ، وبينه وبين بريطانيا خاصة ، وأن يستأنف عهد جديد تستقل فيه الأوطان العربية استقلالا كاملا صحيحاً ، وتعمل فيه مع الأمم الغربية ، وفى مقدمتها بريطانيا العظمى ، على ترقية الحضارة الإنسانية وتقوية الصلات الثقافية ، وتنمية التبادل الاقتصادى ، وتحقيق هذا التعاون الخصب الذى ينتج للنـاس نفعاً وسلماً وأمناً ، ويجنبهم أخطار التنافس الذى يقوم على الأثرة والكيد والمكر وسوء النية .

ولتحقيق هذه الغاية العليا ، يجب أن تخطو بريطانيا العظمى خطوة حازمة جريئة . وكل شىء يدل على أن الشعب البريطانى يود لو يخطو هذه الخطوة ، فيخلى بين أمم الشرق العربى وبين حقها الكامل فى الاستقلال ، ويلغى هذه المشكلات التى إن دل بقاؤها على شىء فانما يدل على أن الغرب لم ينتفع ، أو لا يريد أن ينتفع ، بهذه الدروس القاسية التى ألقتها الحرب العالمية الأولى ، والحرب العالمية الثانية على النـاس . وويل للناس إذا قدمت إليهم الموعظة ، ولم يتعظوا ، وأهديت إليهم العبرة فلم يحسنوا الاعتبار .

طه حسين

من وراء البحار

فرنسا بعد أن وجدت العالم ووجدها

أثارت فرنسا كما تثير دائما، الكثير من الأقوال، لا سيما بعد تحريرها ثم بعد انتهاء الحرب الأوربية. وقد نشرت المجلات الأدبية والاجتماعية بحوثاً كثيرة فى وصف ما تحملته هذه الدولة الكبرى من آلام، وفى حالتها الآن وما ينتظر لها من مستقبل. وقد رأينا أن نقتبس ثلاث صور مختلفة، تلخص أقوال ثلاثة من الكتاب نشرت فى مجلات فرنسية والنجليزية وامريكية. أولها مقال قيم للأديب الفرنسى بول سارتر نشر فى مجلة « فرانس-أوريان » وهو عن عهد الاحتلال. والثانى خلاصة مقال للسيدة كونارد نشر فى مجلة « هورايزن » الانجليزية وهى تصف فرنسا بعد التحرير. والثالث بحث بقلم المؤرخ الاجتماعى اندريه سيجفريد نشر فى مجلة « الأمور الخارجية » الامريكية، وكان جديراً بالنقل بأكمله.

فرنسا تحت الاحتلال

يقول الأديب سارتر: ان الانجليز والأمريكان عندما وصلوا إلى باريس دهشوا إذ وجدوا أهلها أقل نحولا مما كانوا يظنون، ورأوا ثياباً جميلة تبدو عليها الجدة، ولم يقابلوا إلا نادراً تلك الصفرة التى تدل على الحرمان. وكثيراً ما ينقلب الحنان المخدوع إلى حقد، ويخشى أن يكونوا قد غضبوا لأن حالة الفرنسيين لم تنطبق على الصورة التى كانوا قد تصوروها. ولعل بعضهم ظن أن الهزيمة كانت نعمة وأن فرنسا يجب أن تعتبر الهزيمة فرصة أنقذتها من شرور، كما ذكرته غير جريدة انجليزية.

أجل إن الانجليز ذاقوا من ألوان الحرب أكثر من الفرنسيين ؛ فهم عرفوا القنابل الطائرة والخسائر الجسيمة فى أرواح المدنيين ، وشاطروا الفرنسيين فى ألوان من الحرمان تجرها الحرب ، مثل الحرمان الخفى ، ونزول مستوى المعيشة للطبقات ، وانتشار مرض السل . ولكن هنالك أنواعا من المحن لا تعرفها غير البلاد المحتلة .

يجب أن نفهم قبل كل شىء أن الألمان لم يكونوا يسيرون فى الشوارع والسلاح فى قبضتهم ، ولم يكونوا يطلبون إلى المدنيين أن يتركوا لهم أماكنهم وأن يفسحوا لهم الطريق ، بل لقد كانوا يقدمون مقاعدهم فى « المترو » للنساء .

ومع ذلك كان هنالك عدو من أبغض الأعداء إلى الفرنسيين ، ولكن هذا العدو ليس له وجه ، أو على الأقل إن أولئك الذين رأوا وجهه قلما تمكنوا من العودة ليصفوه . وهذا العدو يختطف فى الظلمة خير الرجال ويختص بهم . فانك تذهب لزيارة صديق أو تحاول الاتصال به بالتليفون فلا تجده ، وكل ما تعرفه فيما بعد أنه وجدت آثار ألمانيين زاره بالليل وتحدثوا إليه ثم حملوه إلى حيث لا تدرى .

الواقع أن الفرنسيين كانوا يشعرون فى حياتهم اليومية أن الصلة انقطعت بينهم وبين الماضى ، وأن نظام حياتهم قد تغير . والواقع أن باريس كانت مدينة ميتة لا سيارات ولا مارة ، وأن الناس فيها - إلا فى أوقات معلومة وفى أحياء معلومة - يمشون بين الأحجار . وقد زحفت إلى المدينة فى أطرافها روح الريف ، وبدت شوارعها فسيحة والمسافات فيها بعيدة إذ خلت من أهلها .

لقد ظل الفرنسيون مدة أربع سنوات فى ميزان الأقدار . يظهر الانجليز فى الراديو والصحف الصداقة لهم ، ولكن كان من العبث أن يعتقدوا بأن الانجليز كانوا عندئذ يقاتلون من أجلهم ، بل هم عامل من الأغراض العديدة التى يقاتلون من أجلها . أما الألمان فكانوا على أحسن الفروض يعملون على ضم تلك البلاد للكتلة الأوربية . لقد صار الفرنسيون مثل آنية الزهور التى توضع على النافذة بالنهار وتنقل إلى داخل الغرفة بالليل دون أن تسأل عن رأيها .

هكذا صار الفرنسيون بلا مستقبل ، يعيشون ليومهم والعمال يعملون ليومهم ؛ فقد يقف التيار غداً ، وغداً تقطع ألمانيا المواد الأولية أو تقرر نقلهم إلى باقاريا أو إلى جهة أخرى من الجهات النائية .

فرنسا بعد التحرير

ووصفت السيدة نانسى كونارد، فى الرسالة التى بعثت بها من باريس إلى مجلة «هورايزن»، شعورها عند ما وطئت أرض هذه العاصمة بعد غيبة خمس سنوات، وهى التى كانت تتخذ فرنسا مقاماً وقد قضت عشرين عاماً من حياتها فى باريس تعمل فى الصحافة وهى تقول: «كنت أسير وحدى (ولم أنقطع عن السير منذ ذلك الوقت) فى ميادين الشانزليزيه ومنها إلى تلك الشوارع الواسعة المعروفة بالجران بوليفار حتى أصل إلى بناء البورصة . . . وكنت فى أثناء هذا السير الذى أقوم به لأتصل بفرنسا أقيد بنظرى كل ما يمكن تسجيله. وقد أدهشتنى ثلاثة أمور فى الحال: تلك القبعات التى تضعها النساء فوق رءوسهن، وتلك الأحذية العجيبة الأشكال ذات الكعوب الخشبية، وأولئك الرجال العجيبون الذين يعملون بدل سيارات التاكسى وهم يسوقون مركبات على دراجات أو دراجات ذات محرك وهذه المركبات من الخشب أو المعادن أو الحصير أو كل ما يتسع لشخصين ويكون خفيفاً فى ثقله. ولقد قال الألمان للفرنسيات معلقين على هذه القبعات: «ماذا تفعلن لو أنكن انتصرتن فى الحرب؟». ومن السهل أن تقدر كيف أن هذه القبعات الكبيرة التى هى أحياناً عمائم جميلة ظهرت فى عالم الزى أن الغرض منها رفع الرأس فى وجه الألمانى علامة على أن الروح لم تنكسر — أما عن المركبات وسائقيها فيقول الناس: «إن هذا لفظيع، ولكن السائقين رجال أقوياء وهم يكسبون نقوداً كثيرة».

أما الشوارع الكبيرة «جران بوليفار» فهى مليئة بالناس، والحوانيت تبرق بمحتوياتها، والصحف (على أنها للأسف فى صفحة واحدة) تباع فيها وتظل القهوات مفتوحة إلى الساعة الثامنة أو التاسعة ويغلق البعض منها يوماً أو يومين فى الأسبوع. وتباع مياه ملحة الطعم ذهبية على أنها جعة. ويوجد كونياك مقبول ويوجد مشروب القهوة الوطنية. وهذا يكلف ست أو عشر مرات أو عشرين مرة بالنسبة للنوع الأصلى منها».

وتحدثت السيدة عن الكتب التى يقبل عليها الفرنسيون فذكرت كتاباً لبول فاليرى عن برجسون الفيلسوف وقصة اسمها «أوريليان» وذكرت

إقبال الناس على مؤلفات سارتر وكاميس ، وتنبأت بما ينتظر محبى الآداب والفنون فى القريب العاجل عند عودة الحياة إلى طبيعتها فى العاصمة الفرنسية .

وتكلمت عن المجتمعات الفرنسية فى الضفة اليسرى من السين وذكرت قهوتى « دى ماجو، وفلورى » وقالت إن الأخيرة كانت معقلا أدبيا أمام الألمان حتى إنهم كانوا يترددون فى الدخول إليها وهى الآن مركز للانتاج الأدبى ، ويجلس سارتر فيها وهو يكتب طويلا عند ما يكون فى باريس ، وهى تضم مدرسة فى الأدب مؤلفة من جماعات المقاومة ، وكأنها واحة فى وسط الصعوبات العديدة للحياة اليومية ، وهى الطعام والنقل وعدم وجود الوقت لتدبير أمور المعيشة .

على أن باريس بالرغم من ذلك هى باريس ، لم تمسها القنابل إلا فى بعض الضواحى حيث التخريب شديد . أما وسط المدينة فهو أنيق ملىء بالنشاط منظم الحياة حى بالروايات المسرحية القديمة والحديثة ودور السينما ومعارض الصور والأزياء . وقد أخذ أربعون من كبار صانعى الملابس يبيعون ملابسهم بخمسة عشر ألف فرنك على الأقل ، وتبيع هذه المحلات ذاتها أزياء القبعات الجديدة بما لا يقل عن ثلاثة آلاف فرنك ، ومع ذلك يجدون إقبالا ليس بالقليل .

وتكلمت كاتبة هذه الرسالة عن الروايات المسرحية الحديثة وعن رجال الأدب الملتفين حول مجلة « لتر فرانسيز » وذكرت أن السوق السوداء آخذة فى الاضمحلال ، وأشارت إلى اكتشاف صورة جديدة للمصور هنرى روسو اسمها « الحرب » .

بعث الروح الفرنسية

على أن المقال الذى كان جديراً بالنقل بأكمله هو مقال أندريه سيجفريد الكاتب المؤرخ الشهير والأستاذ فى كوليج دى فرانس ونشرته له مجلة « الأمور الخارجية الأمريكية » وبحث فيه عن بعث الروح الفرنسية . وهو ، كما ذكر فى مستهل مقاله ، لا يرغب فى كتابة تاريخ ، وإنما يحاول تحليل الشعب الفرنسى كما هو بعد خمس سنوات وهى سنوات مثقلة بالحوادث أكثر من قرون ؛ إذ ليس فى تاريخ ألفى سنة مثل ما مرت به منشآت هذه البلاد من اجتماعية وسياسية وأخلاقية فى هذه السنوات القليلة . ولقد كان الدمار والاضطراب

كبيراً ، حتى إن فرنسا بعد أن عادت إلى مكانتها واستقلالها وشغلت مركزها بين الأمم لا يمكن اعتبارها وحدة سياسية .

ولكي نعرف مدى هذه الأزمة يجب أن نعود إلى حالة الفرنسيين عندما أعلنت الحرب . لقد كان المجهود الذي بذلته فرنسا في حرب سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ فوق طاقتها وخسرت في سبيله مليوناً وخمسمائة ألف من أبنائها الموتى هي في حاجة إليهم . ولم تكن تشعر بالرغم من انتصارها بأنها منتصرة ؛ فهي لا تنسى سهولة اقتحام حدودها التي اجتازها العدو أربع مرات في قرن واحد ؛ لذلك كان إلحاحها في احتلال الجانب الأيسر من الراين والتجاؤها إلى الاستناد بالتحالف مع شعوب سلافية في الشرق وهي شعوب لا تعوضها عن الحلف مع روسيا التي خسرتها عندئذ ؛ وكان البريطانيون والأمريكيون يلومونها على هذه السياسة في حين كانت هي تعتقد في سوء سياستهم ، على أنه ما تجسم الخطر الألماني حتى كان قد وقع المحذور ، فأبعدت فرنسا عن ضفة الراين ، وصار تدخلها في وسط أوربا مستحيلا .

ولقد شعر الفرنسيون بشيء من المرارة حين قلبت الدولتان الانجلو سكسونيتان من سياستهما وألحتا على فرنسا بأن تتبع سياسة تؤدي إلى الحرب ولقد صار الفرنسيون وحيدين في الميدان ، والانجليز على استعداد لتأييدهم بكلمة . ولكنهم من غير جيش ، والولايات المتحدة تأبى أن ترتبط ، ورأت فرنسا عمق الهاوية في « مونيخ » فتراجعت وبعد سنة أقدمت ولكن إقدام اليائس . فالذين قاتلوا في حرب ١٩١٤ ظنوها نهاية الحروب ولكن الضرورة تدفعهم لحرب أخرى خاضت فرنسا غمارها في غير حماسة فهي تبدو لها حرباً تخسر فيها كل شيء ولا تكسب شيئاً .

ومما زاد الحالة سوءاً ما كان من اضطراب داخلي في السنوات العشر الأخيرة فاضطرابات ٦ فبراير سنة ١٩٣٤ وحكومة الجبهة الشعبية سنة ١٩٣٦ بذرت بذور الاختلافات العميقة . ولقد كانت الجمهورية الثالثة موضع تأييد الغالبية من الفرنسيين ، ولكنها لم تستطع منذ إنشائها في سنة ١٨٧٥ أن تضم جميع الفرنسيين ولقد أخذت تفقد عطف جزء كبير من الطبقات الوسطى ، ففي اليمين قوم يعترفون بشفاههم بالولاء للجمهورية ولكنهم يحتقرونها ويتمنون سقوطها ، وفي اليسار رجال الثورة . وكان من المستطاع السيطرة على هذين

الفريقين قبل ١٩١٤ ولكنهما فيما بعد صارا خطرين بعد أن أمكن فريق الثورة أن يتخذ روسيا الشيوعية مثالا ، وفريق الرجعيين أن يتخذ ايطاليا الفاشستية أو المانيا النازية مثالا . فالمنشآت البرلمانية لا تسير سيرها الطبيعى إذا أعوزها الولاء وصارت الحكومة تلتجىء إلى الرجعيين إذا ما أرادت حفظ النظام وإلى الثوريين إذا ما أرادت الدفاع عن الجمهورية وصار الاختيار بين الثورة والرجعية حاجة ملحة ، حتى إن أمن الدولة لم يعد أحياناً فى المكان الأول وصار لدى العقول المشوهة أنه من الضرورة الأولى هزيمة الثورة بدلا من هزيمة الألمان . وصارت ألمانيا لدى بعض الناس حاجزاً يحتمون به من الفوضى . ونشأ عن هذا الخلاف فى العاطفة الوطنية أزمة أثرت فى معنى فكرة الوطنية نفسها ، وهذه الأمور قريبة جداً حتى ليشك فى اعتبارها من الماضى .

هذه الأمور تفسر السبب فى قبول الهدنة سنة ١٩٤٠ ؛ فلقد كان الشعب الفرنسى يتمنى ألا تقوم هذه الحرب ، ودخلها فى غير عقيدة ثم قال له الزعماء الحربيون إن الاستمرار فى القتال مستحيل . أما الجنرال ديجول ففرق بين موقعة فرنسا وهى موقعة خاسرة وبين موقعة العالم التى يمكن أن تكتسب ، ولكنه فى ذلك الوقت كان لا يمثل إلا عواطف أقلية إذ الظاهر أنه لم يبق ما يعمله إلا تدبير موقف كان من بادىء الأمر سيئاً ، ولا تلبث انجلترا أن تذوق مصير فرنسا وهكذا ذهبت الزعامة القديمة فى هول الكارثة وسادت فوضى لا تظهر أمامها غير نقطة تجمع واحدة هى المارشال بيتان . ولم يكن الناس يعرفون عنه إلا أسطورته ، ولم يكونوا يعرفون أنه بطبيعته من دعاة الهزيمة وأنه بمضى الزمن قد نمت فيه شهوة السلطة لا ليخدم الجمهورية بل ليدمرها .

وأراد بعض الناس أن يعتقدوا أن آراء المارشال لا يمكن أن تكون موضعاً للريبة ، وكان الآخرون لا يؤمنون من دى جول إلا باسمه . والحقيقة أن البلاد كانت كرجل تلقى على رأسه ضربة عنيفة .

لقد كانت القوى التى تستمد منها حكومة فيشى آراءها معقدة ولكن تظهر فيها بعض الصفات البارزة ؛ فهى حكومة مطلقة يستعمل فيها المارشال سلطة « الزعيم الأساسى » . وهى لا تعترف بالاستفتاء العام وهو إجراء متبع منذ قرن فى فرنسا ولقد عملت على نسيان الجمهورية بين شعب متمسك بها واتبعت نظاماً دينيا فى المدارس الابتدائية لم تكن ترغب فيه حتى بعض الأحزاب الكاثوليكية .

وحاولت فى الميدان الاجتماعى القضاء على نقابات العمال على أن تحل بدلها فكرة الدولة النقابية ، وفى السياسة الخارجية تجنبت عقد محالفة حربية مع ألمانيا ولكنها أعربت عن كراهية للانجليز فى قوة لا يمكن أن تكون غير حقيقية ، ولكن من الجور أن نقول إنها لم تعمل لتخفيف آلام الشعب الفرنسى . ولكن فرنسا الديموقراطية فى زمن الثورة وفرنسا القوية الفخور فى سنتى ١٧٩٢ و١٩١٤ لا يمكن أن تعرف نفسها فى هذا النظام . ولم تقتصر الحكومة على الصمت أمام المنتصر ، بل أظهرت رضا عن مجرى الأمور . أجل ! إن المارشال كان شخصاً محبوباً ، ولكن الاحتجاج على النظام كان يتجمع حول دى جول ، وإن لم يكن هذا إلا رمزاً إذ لم يؤيده أحد من الشخصيات البارزة . ولذلك كان من الصعب الحكم على الاتجاه السياسى لأنصاره . ولقد قال بعض الناس إن أنصاره من الشيوعيين ، وقال البعض إنهم من رجال « الاكسيون فرانسيز » . وهذا يفيد أنه وجد أنصاراً بين اليسار واليمين ، على أن أكثر صفوفه تتألف من اليسار .

وتجمعت تدريجياً الكراهية للأجنبى وصارت لا تحتمل ، ولكن حركة المقاومة لم توجد ولم تنشأ إلا بعد حوادث نوفمبر سنة ١٩٤٢ عند ما ألقى الألمان القناع وألغوا نظام المنطقتين وامتد نفوذهم على فرنسا .

وعند هذا المكان يجب تحليل النفسية السياسية لرجال المقاومة ، ففيها مفتاح الصعوبات الحالية فى فرنسا ، فهم من جميع الأحزاب ولكن أكثرهم من أحزاب اليسار ، والكثيرون بينهم من الشيوعيين ، وهؤلاء الشبان ساروا سيرة المتآمرين ولم يتبعوا النظم البرلمانية ، وهى تجربة جديدة تركت فيهم آثاراً فهم يعتقدون أن حركتهم تمثل رغبة الشعب أكثر من الهيئة المنتخبة ؛ وبذلك تكونت نخبة قد يكون لها تأثير فى عالم السياسة .

وعند ما دخل دى جول باريس فى ٢٥ أغسطس سنة ١٩٤٤ وجد بلاداً ثملة بالفرح ولكنها من غير نظام سياسى أو إدارى ، لا جيش غير ما يحتاج إليه الميدان ولا قوة بوليس غير التى ظلت فيشى تطهر فيها وتبدل حتى لم يبق لها ما تحسنه إلا دور إيقاظ الاضطراب وهو ما قامت به خير قيام عند التحرير . ولم يبق من الادارة غير خدام فيشى الذين لا يعتمد عليهم . على أن جيوش المقاومة تولت مقاليد الأمور ولم يكن الناس يعرفونها ولم تك منتخبة ؛ لذلك أقامت فى الواقع دكتاتورية .

وجدت الحكومة الجديدة صعوبات من أنصارها المتحمسين الذين ألفوا قوات داخلية فنجحت فى ضمهم إلى الجيش . ومما زاد أمامها الصعوبات انقطاع المواصلات انقطاعاً يكاد يكون تاما . ثم إن أنصار التعاون كانوا لا يزالون يعملون وإن كانوا أقلية ، وسواد الشعب يرغب فى الانتقام منهم انتقاماً سريعاً . فانطلاق الناس بعد أربع سنوات كان أشبه بإزالة جسر تتدفق على أثره المياه وتطغى . فكان على الحكومة أن تستعمل منتهى الحكمة لكى تحول دون الحرب الأهلية . ويظهر أنها كانت مزودة بهذه الحكمة ، وتعرف متى تشتد ومتى تلين ومتى تتجنب اتخاذ قرار . ولقد نجح دى جول فى تفسير الموقف السياسى فأعلن أنه حكومة مؤقتة للجمهورية الفرنسية ، وبذلك اجتذب كثرة الشعب . وقد ظن أكثر الناس أن عمله تم بذلك ، ولكن رجال المقاومة يرون أنه يجب إتمام « الثورة » . على أن لكلمة الثورة معنى خطيراً فى بلد مثل فرنسا ؛ فهم لا يتحمسون لإعادة الجمهورية الثالثة ، وهم متأثرون بروح التغيير الثورى الذى يؤدى إلى الاشتراكية الديمقراطية برياسة الزعيم ، وهذه الفكرة تمليها تقاليد الثورة الفرنسية والشيوعية الروسية . ولا يمكن أن ننكر أن وجود الألمان يترك أثره ، وأن الجو مشبع بالرغبة فى الطرق الدكتاتورية والرغبة عن طرق الحرية ، وفرنسا بلد متصل بالقارة ولا بد أن يتأثر بالآراء التى سادت فى شرقه .

والآن لا يمكن الحكم على سير الأمور غير أن فرنسا وقفت على أقدامها وقامت بمعجزة من الموت وعادت إليها حريتها وشرفها ، فما موقفها بإزاء الدول الأخرى ؟

يعتبر الفرنسى أنه استرد مركزه الأدبى فى العالم ، ويجد حاجة إلى تأكيد هذا المركز مرة بعد مرة فى تعجل عصبى ؛ لأن ذكرى السنوات الأربع لا تزال ماثلة لديه . ففرنسا لا تحتمل أن تشعر بأن مركزها السياسى لا يتفق مع مركزها فى الحضارة . وهى بالرغم مما حاق بها من دمار وما خسرته من رجال وما حل بها من ضيق ومتاعب ، تعمل على أن تسترد من قوتها وزعماؤها يعملون من أجلها .

إن فرنسا لم تقم قط من كبوة بمثل السرعة التى قامت بها هذه المرة . وليس من السهل وصف هذه النهضة العجيبة التى تكاد تكون من المعجزات ؛ فان الأزمة التى مرت بها فى حرب المائة سنة كانت أقل خطراً لأن حب البلاد عندئذ لم ينفصل عن الولاء للملك . أما فى هذه المرة فقد كانت الحفرة بادية العمق وهول الكارثة جاثماً فلم تك نهضة فرنسا إذن إلا بعثا .

الكاتب المصرى

مجلة ادبية شهرية

تصدرها دار الكاتب المصرى
شركة مساهمة مصرية

وتطبع بمطبعتها

رئيس التحرير

طه حسين

سكرتير التحرير

حسن محمود

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

الاشتراك

يدفع مقدماً باسم « الكاتب المصرى »

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان
١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو مايعادلها

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل مايرد اليها من المقالات
والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

الثمن بمصر : ١٠ قروش

مطبعة الكاتب المصرى شركة مساهمة مصرية